رواية

جمال الغيطاني

خُلْسات الكرى

دفاتر التدوين : الدفتر الأول

شرقيات

Bibliotheca Alexandrina

محيى الدين اللباد

خُلْسات الكرى

خلسات الكرى

جمال الغيطاني

الطبعة الأولى ١٩٩٦

© حقوق النشر محفوظة ١٩٩٦

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ س.ت ٢٦٩١٩٨

غلاف : محيي الدين اللّباد

رقم الإيداع ٨٤٥٢ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي ISBN 977 - 283 - 015 - 9

خُلْسات الكرى

جمال الغيطاني

دار شرقيات للنشر والتوزيع

نظري بَدءُ عِلّتي

ويح قلبي وماجَنى

يا معين الضَّنىَ عليْـ

يَ ، أعِنّي على الضَّنى

"الحلاّج"

تَحْنين

ما تبقّى أقلُّ مما مَضَى .

يَقينٌ لا شكَّ فيه ، أُعيهِ. أتمثّلُهُ، أعيشُهُ. فلماذا أبدو مَبْهُوتاً، مُباغَتاً كأنّي لا أعرف. مع أنني المعنيُّ والمطويُّ والماضي إلى زوالٍ حتميّ؟ لا أتوقف عن إبداء الدهشةِ، لا أكفُّ عن التساؤلِ إنْ بالصمت ِ أو بالنطق..

لماذا يُسْرِعُ الإيقاعُ مع قُرْبِ التمام ؟

لماذا تنشط الخُطَى وتُسْرِع الحركةُ عند الدنوّ ؟

لماذا يَقْوَى العَزْمُ عند قُرْبِ نفادِ الطاقة ؟

لماذا يَقعُ التوثُّبُ مع صَلْصَلَةِ أجراسِ الرحيل ؟

لماذا تكون أقصى درجاتِ اللمعةِ قبيل الانطفاء ؟

لنا في توثُّب واندلاعِ لهبِ الشمعةِ أسوةٌ وعِبْرةٌ، أما ذروةُ ضجيجِ الآلةِ المحرِّكة في الطائرة أو الناقلة البحريةِ قبل الكفّ مباشرة. إدراكي غشّاني وانتباهي قضّني.

حتى الثلاثين، يكون التطلع أكثر من الالتفات. بدءاً من الأربعين، وبعد فقدِ الأحبةِ، يكون بَدءُ إدراكِ الفَوْت. حتى إذا حَلّت الخمسون، وأُوصِدَتْ أبوابٌ، أيْقَنْتُ أن ما تبقّى سينقضي كَنُدَفِ الغمام إذ تذروها الرياحُ، لهذا شرعتُ، قُلْتُ فَلأَعْتَبِرْ السنواتِ القادمةَ، إذا قدر لي احتيازها. حقاً.. لا تدري نَفْسٌ ماذا تكسبُ غداً ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت ؟

خطوة المرء قوامها ساقان، واحدة إلى الوراء، الأخرى إلى الأمام، الأولى انقضت، ولأنني لا أدري بالضبط ما سيكونُ عليه الحالُ في اللحظة التالية، قلتُ فلأشرعْ.

هكذا تهيأتُ. ورغم أنني مسكونٌ بالتوق، إلا أنني كنتُ بحاجة إلى التحنين، وهذا من الحنينِ وغيرِه أيضا. الحنينُ كما جاء في "اللسان" هو الشديد من البكاء والطرب. وهو خلاصة الشوق وتَوَقَان النفس. وهذا حالٌ غالبٌ عليَّ فقد حُزْتُ الحنينَ وصفاً ومضموناً.

يُقالُ : حَنَّ قلبي إليه فهذا نِزاعٌ واشْتياقٌ من غَيْرِ صَوْتٍ، وَ حنَّت الناقةُ إلى أُلاَّفِها. فهذا صوت مع نزاعٍ، وكلا الأمرين عالقٌ بي. أما التحنينُ - كما أفهم - فهو الحضُّ على الشوق، والتشجيعُ على الميل. وكلاهما لا يكونُ إلاَّ من أجل عزيزٍ، غالٍ، بعيدٍ، وهل هناك أعَزُّ على المرء من عمره ؟

هل ثمة أقْسَى من اللحظات المُوَلِّيَة ؟

لا أظنُّ. لذلك شرعتُ، غير أنني أبدأُ بالتحنين. فالمسافاتُ بعيدةٌ والعلامات باهتة. بل إن بعضها مُحِيَ تماماً. وأصْعَبُ الترحال ما كان في الذاكرة، وعهدي بالتحنين قديمٌ. في زمني الأول، مسقط رأسي، حيث النخيلُ وظلالُ الماء في القنوات السارية. ورائحة الخبيز عند الظهيرة، وعبقُ البوص، والطينُ الراكدُ، والتينُ العسليُّ. و"بكاتُ" ماكينة الطحين الغُروبية. وأصداءُ تلك الأغنيات التي يوحد بينها الشجنُ، إذ يجتمعُ النساء في صحن دار فسيحة. يبدأْنَ التحنينَ، يقصِدْنَ إثارةَ الأشواق إلى أرض يثربَ ومكة، كنَّ يقصِدْنَ إثارة الشوق عند من يُصغي ويسعَى، غير أن أصواتهن اتخذتْ سبيلاً عجباً، سَرَتْ عبر الوقت بعد أن هجعت عندي زمناً طويلاً. فاستثارتْ أساي.
وامتزجتْ عندي بأنغامٍ غامضةٍ يصعبُ تصنيفُها أو نسبتُها إلى مرجعية بعينها، أو مقامات خاصة، منها القادمُ إليَّ، الساري نحوي، غير أن معظمها صادر عني،

الغريبُ أنها بعثت ملامحَ طافت بي، عبرتني، لا أكاد أمسك أحدها حتى يفلت. أوشك على التمكن فيولّي. رغم انتفاء اليقين، إلا أن ما بدا صعباً، عسراً أثار شجايَ. أما الرفارف التي أحاطت بي ومستني وأحجّتني، فمتعلقٌ أمرُها بالمرأة، فكما بدأ سعيي منها واستمر إليها. أتوسل بها و أُلهِبُ بها أمري لعل منهلي دانٍ..

ما يُمْكن أن يكون

ليس الجمال الأنثوي إلا إشارةً وتلميحاً إلى عذوبة الكون المتكوِّن بالفعل والمحتمل أيضاً. أنفقتُ عمري في التشوُّفِ إليه، غير أنني لَم أرتوِ ولم أنَلْ حظي.

إذ يبدأُ نزوعي فالبدارُ. البدارُ إلى أول من عرفتُ، إلى رَحِمِ أمي، إلى عنائها حتى انفصالي عنها واتصالي بها، والمعلوم أنه ما من كينونة إلا بعد مجاهدةٍ وتدويم. فسعادةُ استيعاب اليُسْر لا تكونُ إلا بعد الإفلاتِ من العُسْر. وبقدر المشقةِ يكونُ الانشراحُ، والمعرفةُ نسبيةٌ، وليس تحصيلُها مريحاً في كل الأحوال، ومازلتُ أسعى، ومن يَسْعَ يلتفتْ، ولا يكونُ الالتفاتُ إلاّ لمن قطع قدراً من الطريق وجرى له فقد. كما لا يصير التطلعُ إلى الآتي إلا لمن عنده توقٌ. وشوقي دائماً إلى الأنثى في سائر أحوالها وتجلياتها، في ظهورها، في خفائها، عبر كافة الأزمنة، لا يقتصرُ الأمرُ على وقتٍ المحدودِ، ذلك أن صلاتٍ قامت بيني وبين من يفصلها عني قرونٌ شتى وحقبٌ. ألغيتُ المسافاتِ فتمكنتُ. اقْتَرَنَتْ لذتي الحسيةُ بمتعتي المعنوية، ولهذا شرحٌ أُورِدُهُ إذا سمحَ الحالُ وطاب.

تفاوتت درجاتُ معرفتي. وظلالُ الصلات.

تمت علاقتي بالقليل منهن وبلغت، وهؤلاء خارج بثّي. الحقَّ.. أنني لم أسعَ طيلة عمري إلا صوبَ الأتمِّ منهن. ولا أرتجف إلاَّ لظهور المكمَّلات المبهرات. عند ظهورهنَّ يترددُ أقراني خشيةً ومهابةً أو تحفزاً، غير أنني كنت أُقْدِم، وأثابر، وأسلك طرقاً شتى حتى أسلم بريدي وتَفُضَّ مظاريفي، ونتبادل القراءة، فالتواصلُ اطلاعٌ وإحاطةٌ، غير أن ما تم لم يدمْ في معظم الأحوال لِعَسْفِ الأحوال، وصعوبة الظروف، وتباعد المسافات وقلة الإقدام، وتمكُّن الخُذْلاَنِ بعد وقوعِ الارتواء.

مِنْ هؤلاء قلةٌ. بل أصرِّحُ فأُقرُّ أنهنَّ لا يتجاوزْنَ أصابعَ اليد الواحدة، منهن الباسقَةُ، والنَغَمِيَّةُ، والرُّوِيَّةُ، والأنثى الشهابيَّةُ.

عرفتُ المطابِقةَ، المناسبةَ لحالي، العاطِفةَ، الحانةَ عليَّ، الدالةَ على ما يَخْفَى عليَّ مني، لكنني لم أنلْ منهنَّ حظي. إما لتعرفي بهن في اللحظاتِ الأخيرةِ الفارقةِ، ولم يكنْ بوسعي إلاَّ الامتثالُ. أو لميل الحال وانتفاء الملاءَمَة، حقاً.. لَكَمْ امتثلتُ للظروف. أنا الذي عِشْتُ زمناً ليس بالهين أسعى إلى تغيير الظروف تمهيداً لتغيير البشر، بل حلمتُ بتغيير العالم وفاضتْ بذلك قناعاتي، فإذا بالعالم يغيِّرني ويبدِّلني وأصلُ إلى لحظةٍ لا أقدر فيها على تأجيل رحيلي يوماً واحداً لتحقيق الوصْلِ وتمامِ الكفاية.

وعرفتُ الوافداتِ عليَّ من حيثُ لا أدري، منَ لم يَسْعَيْنَ قط في عالم الحس. أعني من وَفَدْنَ إلى أحلامي فاتّنَسْتُ بملامحهنَّ، وفِضْتُ بوجودهنَّ، وبَعَثْنَ عندي بهجةً غامضةً شَرَحَتْ صدري. وفاض مائي أثْنَاءَ ضَجْعَتِي، وصحوتُ على نشوة غيبية حسية. وحتى الآن لا يمكنني الإلمامُ بلحظات وفادتهنَّ أو استعادةُ إقامتهن. إذ جئْنَ وذهبْنَ، حَلَلْنَ ورَحَلْنَ، ولم أُلْمِمْ منهن بطرف، وهذا حالٌ شائع لكن تدوينه صعب. وهذا ما سأقدِمُ عليه يوماً، غير أنني أبدأ بما هو أغربُ وغير مألوف.

بعضُهُنَّ سَعَيْنَ في مجال بصري. لم أدركْ وجودهنَّ الحسيَّ. لم يمتزجْ عرقُهُنَّ بعرقي. غير أن طلعةَ كل منهنّ أخذتني عني، وكثيراً ما يقصُّ المرء ما تمنى أن يكونَ لا ما كان بالفعل. والأكثرُ أنه يرى بالتمني ما يمكنُ أنْ يكونَ بدلاً من ذلك الذي كان.. هذا محور تدويني التالي.

لقيت معظمَهُنَّ في لحظاتِ التقاطع الزمكانية الحادة، في انتقالي وإقامتي، ومن هؤلاء الأنثى الملكة. والثُريّا والسُّنبلة، والجوهرة، والبلبلة، والمتكَوْكِبَة. والأنثى المجرَّة.. وغيرهُنَّ. وإني لموردٌ تفاصيل رؤيتي وتوقعي.

نعرفُ ما كان، ونلم أحياناً بما يكونُ، لكننا نجهلُ ما ستصيرُ إليهِ الأمورُ. بل إننا لا نُعنُ البصيرةَ في احتمالات ما يمكن أن يصيرَ إليه الحالُ الماثل، ولأن ما فات صار إلى هباء. ما تحقق منه وما لم يكتملْ، لذلك ألَحَّ عليّ إدراكُ ما كان ممكناً أن يكون.

هذا وعرٌ، فالإحاطة بما كان - حقاً وفعلاً بالمشاهدة والمعاينة - مستحيل، فكيف تَصَوُّرُ ما لم يقع أصلاً والبنيانُ عليه ؟

ألف

احتواها بصري عندما قصدْتُ جزيرة البحرين يوم الجمعة بعد ظهرِ يومٍ شتوي سنة سبعٍ وثمانين. منفرداً جلستُ في الصالةِ التي تسبقِ دخولَ الممرّ المؤدي إلى الطائرة، أتأمل المسافرين، جنسياتِهم البادية من الملامح، كيف يتصرف كل منهم. أُخمّنُ الهوياتِ المجهولةَ والغايةَ من الرحيلِ ودرجةَ الصلة بين كل اثنين يصلهما حوارٌ. هذا دأبي عند قطع المسافاتَ. غير أنني في لحظة توقفتُ. أدركني وجودُها قبل دخولِها مجالَ بصري. كثيراً ما اتفق لي ذلك مع

الإناث الحاضراتِ، المشعَّات، النافثات فَيْضَهُنَّ. لم أتلفتْ، إنما كنتُ شاحذاً كافةَ حواسي. حتى أصغيتُ إلى ذبذبات صوتها، إلى تضوِّيه تلألئه، مرتْ من أمامي فأدركتُ أنني على شفا من جوهر الحرف.

الألف ا

قوامها متوحدٌ بذاته، ليس بحاجة إلى ما يسبقه أو يليه، سياق جسديٌّ خلوٌ من أيّ مَيْل، حالٌ مستمرٌ لا ينقطع ولا يكفّ، سامقٌ.. لكن في غير إفراط. لا نهائي ومحدودٌ في الوقت عينه، صاعدٌ أبداً، يحدد ما فوق وما تحت.

عنقٌ مُوَاتٍ وشمخةٌ ملكيةٌ. إنسانية. قَوامٌ حليٌّ، ناصعٌ، رغم انبساطه إلاّ أنه يُلَمِّحُ بشرفتي صدرٍ ناهد. وأرداف متينةٍ. مزدهرة. استدارتُها متصلةٌ. مكتملةٌ. كل امرأة كَوكبٌ بذاتها، والنجوم دائرية التكوين والمسار. هكذا.. كل امرأة دائريةٌ، لا تكتمل إلاّ بتكوكبِها معَ غيرها. إلا أن سموق تلك طاغٍ، مهيمن. عَمَّ واحتوى.

ألفٌ هي. تبدأ مثل الحرف من نقطة وتنتهي في نقطة، منها تتوالد كافةُ الأشكالِ، المستقيمةِ والمنحنية، الناقصةِ والمكتملة، هكذا يكونُ الألف، فلنتمعنْ.

إنه وحيد. مكتمل بفرديته. كل الحروف تتشكل منه، لكنه لا يأخذ منها ولا يحتاجُ، هكذا بَدَتْ في خطوها المتئد النزيه. في ارتجافات قدِّها. في تطلعاتِها العلويةِ، حتى بعد جلوسِها.. كأنها لم تنثنِ. أَلِفٌ في قعدتِها. في انحنائها، كلها طَلْعٌ ومناوأة وتحدٍّ.

عبر التحليق صرتُ في مجالها البصري، أتقدمُّها بصفين من المقاعد. إذا تطلعتُ بطرف عيني ألمحها، إذا التفتُّ لا أقدر على الاستمرار فأنثني. عيناها خضراوان. بشرتها سمراء. وجهها متسقٌ مع قوامها المبدئي، تنفذ مويجاتُ صوتها إلى صميم سمعي، تُلغي هَدِيرَ الأعالي. كلّ ما عداها، تتحدث إلى طفل

صغير، بين التاسعةِ والعاشرة، تحاورُه كَنِدّ، لم يصلني صوتُه قط، ربما لشمولها ما عداها.

حقاً.. لم ألمح طوال الرحلة غيرها. الآخرون أطيافٌ ولا قسماتٍ واضحة. بعد انقضاء المدة لا أقدُر إلا على استعادتِها هي، خطواتِها، شروعِها عند المشي كالراية، اختزلتْ السوابقَ واللواحقَ، وكلما استعدتُ أو رأيتُ أو جالستُ أو أصغيتُ أو خلوتُ بأنثى أطالع عندها قبساً، غير أنني لم أرصد ملمحاً منها عند الأخريات.

خرجنا.. ممر طويلٌ مؤدٍ إلى صالة فارقة، إما المضيّ إلى مكاتب الجوازات لدخولِ الجزيرة، أو الاستمرارُ إلى صالة العابرين المتجهين إلى نقاطٍ أخرى من المعمورة.

أبطأتُ حتى تتقدمَني. وأسعى في إثرها، التابعُ يرى مالا يَطَّلعُ عليه المتقدمُ، ثُمَّ.. كيف يمكن سبقُ أولِ الأبجدية؟ هل قبلَ البداية بدايةٌ؟

تهادتْ ولم أضلَّ عنها، حتى بلغنا تلك النقطة، افترقتْ خطانا، هذا حتميّ. قَدَّرْتُ أنها متجهةٌ شرقاً. من هنا يبدأ عبورُ المحيط الهنديّ ثم الهادي.. لم أفكّر في القارّات، غير أنني رأيتُ مياهَ المحيطات والطيرانَ فوقها ساعاتٍ طوالاً، ستحلق عبر الفضاءات العُلى مودعة أثراً خفياً لا يبدو إلا لمن أدرك واستوعب!

آخرُ ما لمحتُهُ منها الهامةُ المؤطرةُ بشعرٍ غزيرٍ ناعم، تُرى.. أيّ مدينة؟ أيّ فراش يتمدد فوقه هذا القوامُ المبدئي. الفارهُ، الناعم؟ ، كيف لم أُقْدِمْ؟ كيف لم أفتعل الحجةَ للوقوفِ على الحد الأدنى؟ تركتُها للفضاءاتِ التي تحتوي المحيطات، غير أنها وَفَدَتْ عليّ من حيث لا أتوقع، بعد زمن غير قصير.

جرى ذلك عصرَ يومٍ قصدتُ فيه البحرَ. كنتُ بحاجةٍ إلى الانفراد، إلى مواجهة الأفق غير المحدود، المتحدد، إلى تتابع موجه، إلى صفائه. إلى أبديته،

منذ سنوات يفاعتي اعتدتُ المجيءَ إلى موضع بعينه من شاطئ صخريّ غربَ قلعةِ قايتباي، حدِّ الميناء الشرقي السكندري العتيقِ، أجيء إلى الأمواجِ والمدى كمتأملٍ وليس كسابح. فلم يسبقْ لي اتقانُ العوم. هنا أنفرد بالبحر كليةً. ما من حواجزِ أمواجٍ صناعية أو مراكبَ رئيسيةَ. إنما أفقٌ جموح يحوي نذيراً ونبوءة بالنهاية حيث موضعُ مغيبِ الشمس، كنتُ أحدق صوبَه مجتهداً في نسيان كل وجود يقوم ورائي، عندما ظهرت أمامي.

تتقدمُ صوبي، نحوي، يقصدُ قوامُها الفارهُ جهاتي. ورغم أنها آتية، مقبلة، إلا أنني لم أرها إلا جانبيةً تماما كجداريات المعابد الفرعونية، حيث تطالعنا الوجوهُ في أوضاع مغايرة. هكذا لاحَتْ عندَ ظهورها مرتديةً ثوبَها القاتمَ الذي طالَعْتُها به عندما وقعتْ عيناي عليها أول مرة. لم أَر قدميها، كانت تخطو فوق الأمواج المتلاحقة. واثقةً، لا تميلُ مع الهوى. داعيةً، آمرةً، ملبيةً، شخصتُ..

شبَّ داخلي بهت، لم أتوقعْ، خاصةً أن ظهورها اقترن باندلاع الرغبة، مع أن محاولاتي خلال استدعائي لها بالمخيلة لم تسفر عن تجريد قط. لم أقدر على تخيل تضاريسها الأنثوية. أو استنتاج أمرها عند بلوغ ذروة النشوة، وهل ينفرط عقدُها أم يبقى متماسكاً؟

صار أمري مختلفاً بالكلية عند رؤيتي لها، قادمة. واثقةً، أوَّلُها في البحر، وآخرُها في الفضاءات العُلى، منها يتدفقُ الموج، ويبدأ القَطْرُ، تَصِلُ المافوق بالما تحت، فراهتُها. اندلاعُها المشبوبُ، المستمرُّ. المتدفقُ. قمتُ.

غير أنني واهٍ، كالنقطة المجاورة للألف. كانت حضوراً وكنت مجرد إشارة. مويجةٍ صدى، مدتْ يَدَها. لم أدر.. أهِيَ دعوةٌ أم أمر؟

نزوعٌ لم أعرفْ مثيلاً له قطّ. تأجُجٌ لم أبلغْ مثلَه حتى في سنوات اكتمالي الأولى.

صرت مشدوداً إلى يدها الحاضة، الحازمة، المغرية، تطلعْتُ حولي، إلى الصخور الأزلية. إلى المباني البعيدة، إلى البرّ الذي سعيت دائماً فوقه، وفي لحظة بعينها لَفَتّني إيماءاتُها المشجعةُ، أن أمضيَ صوبَها، أن يكونَ اللقاءُ في الماءِ وبالماءِ. بدأتُ خطوي وعبارةٌ تترددُ عندي لم أدرِ مصدرها.

"هذا أوانُها.. هذا أوانُها.."

الملكة

مثلْتُ في رحابها مع بَدءِ تعدُّدِ أسفاري، قبل بلوغي العشرين بعامين شرعتُ في الرحيل إلى قرى ومدن في الوجهين: البحري والقبلي والواحات لمتابعة تنفيذ ما نصممه في المركز الرئيسي بالقاهرة من نقوش وزخارف الأبسطة الفارسية والتركية والصينية والمغولية والعربية والفرعونية. أنفقتُ سنوات من عمري في دراستها وإتقانها والإلمام بأسرارها وكذلك صباغة الألوان ودرجاتها وأطيافها ولذلك حديثٌ قائم بذاته.

لا أذكر جلالَها إلا ويتداعى إليّ وداعُ أبي لي لحظةَ ركوبي القطارَ متجها إلى الجنوب في أول مهامي، خرج رحمه الله ورائي لتوديعي وإغراق حنوٍّه عليَّ في أول مرةٍ أفترق عنه منفرداً، ومنذ أن بدأتُ ذلك الصباح لم أكفّ. لحظة تحرّكِ القطار، تلك الحركةُ البطيئةُ ما ثلةٌ دوماً. علامةٌ عندي، أعود إليها في أزمنةٍ شتى. وأمكنة قصية، تلك لحظةٌ لي وقفةٌ بشأنها، إزاءها.. لكن في تدوين آخر.

قصدّتُ الجنوب. والرحيل إلى "قِبلي" عندي تلبية للتوقِ والنزوعِ والتماس اللجوءِ عند المقصدِ والمرجع، هنا أولُ هواءِ تنسَّمْتُه. أولُ أرضٍ مسَّها وجودي

الدنيويّ، وخلال تلك الرحلة لم أفكرْ و لم أتوقعْ رؤيتي لها عند وصولي مقرّ إقامتِها، "ديرَ الجنادلة"..

بعد انقضاء ثلاثة عقود جرى فيها ما جرى. ونالني ما نالني، لكنني لا أصغي إلى الاسم إلا وأهفو، يتردد عندي نغمٌ قديمٌ يُمَهِّدُ لحضورها، لبهائها، تبدو كما وقع بصري عليها أولَ مرةٍ، كأنها ماثلةٌ، باقيةٌ حتى الآن كما هي، لا يدركُها تغيُّرٌ ولا يلحقُها بِلَى. دائما صادحةُ الألَق. مُبَشِّرة. "دير الجنادلة"

بيوت مؤطرة بالنخيل. وأشجار الدوم. وقنوات المياه الفياضة برائحة الخصوبة. وتراكم البوص فوق البيوت، وتمخطر الأوزّ شاهق البياض في الطرقات الضيقة آمناً من كل سوء. الرائحةُ العلامةُ، مزيجٌ من دخانِ الأفران، وتنفس النبات. وحضورِ عناقيد العنب. وثمار التين. ونضج البلح.. عناصر شتى تُجسِّدُ حضور التفاصيلِ القديمة المدونة على جدران القبور والمعابد ودهاليز التيه.البلدة أكبر من قرية وأصغر من مدينة، تقع الوحدة الإنتاجية فوق موضع خارجَها، بناءٌ قديمٌ تحوّلَ إلى مقرّ. آخرُ ما يخطرُ على بال أي إنسان مواجهتُها في هذا المكان المتواضع. أن يواجهَ جلالاً قائماً مؤثّراً، غير أن هذا ما جرى لي. حتى الآن لا أدري لماذا اتجهتُ إلى تلك الوحدة، نسيتُ السببَ، المؤكّد أن مصنع السجاد الذي أقصُده في مكان آخر، الوحدةُ تتبع الشئون الاجتماعية، لا أدري أيضاً.. مَن صحبني أو صحبتُ مَن؟ غاب كلٌّ ما عداها. وحتى الآن إذا ورد هذا البلدُ على خاطري أو مررتُ به أو سمعتُ فلا أرى غيرها. استعادة اللحظة الأولى من الأسباب ! تتداعى عندي أوصافاً...

مرمرية

فيضها

خميرتها الباقية

إشعاعها الذهبيُّ على ما عداها

سموقُها. تلألؤ ثُغرها إذ تنفرجُ شفتاها الريانتان، المرتويتان، المتوردتان، المتأهبتان، الخفرتان، الداعيتان، الحاضتان، المنذرتان أيضاً. حضورُها يؤنث المكان، معها لا يمكنُ النظرُ إلى أرضٍ أو سماء أو جدار أو عتبة، لشدة بثّها لا يمكنُ الشخوصُ إليها، إنما يُضطَرُّ الإنسانُ إلى الحيدة بعينيه، كيف الأمرُ إذن مع الدنوّ وعند الشروع في لمسها.

عيناها طازجتان، رأسها مُشْرَعٌ. جبهتها مرفرفةٌ. أما صاريها فأشَمّ، ورغم الهيبة، وحيازتها سلطةَ الجمالِ الرادعةَ، إلا أنها حانيةٌ، دافئةُ النطق كحليب النوق الفائرِ الخارج لتوّه من تلافيف الضرع، أمضيتُ سنواتٍ متتالية لا أستدعي نَبْرَةَ إلاّ ويستنفر القشعريرةَ داخل فقرات ظهري. مع تقدمي عبر الزمن أو تقدّمِه بي راحتْ ملامحُه تنأى، هذا عهدي بالأصوات. إنها أول ما يغيب، أول ما يتسحبُ من الملامح. هذا ما فصلته في كتاب التجليات، فليرجعْ إليه من شاء، فلم أُقْدِمْ على تدوينه إلا إشهاراً للقدرة الإنسانية في مواجهة النسيان. راح مني صوتُها غير أن فيضها مازال مُدرِكي.

بقدر ما كان وجودها حاضناً، آمراً، محرضاً على البقاء في الحياة الدنيا وليس في مدارها فقط، بقدر ما كنتُ مضطراً إلى الذهاب. إلى المغادرة. ولم يكن طرفي مساعداً على بقائي بحضرتها. ولزومي بلاطها.

لحيظاتٍ دام اللقاء، خلالَها عمق إيماني وثبّتَ قلبي. لكن أحزاني المبكرة سلكت طرقاً مستحدثة عليّ، لَكَمْ فاجأتني في أوقات انفرادي، خاصة في أسفاري أو عند جلوسي أمام البحر.

العجيب أنني رغم استيعابي لوثارة جسدها إلا أني لم أستدعِها إليّ عاريةً قط. رغم تعرفي على قسماتها مع حشمة الثوب. لم أرها إلا واقفة. رغم أنها كانت قاعدةً، رانية.

بمجردَ ظهورها أنحني ولو كنت في جمعٍ، أطأطئُ هامتي حتى لو ضمّني حشدٌ. أقومُ بأداء مراسمي عند ظهورها لي، تماما كما رأيتها أولَ مرة. وحديثي في ذلك يطولُ غير أنني أقصّرُ خشيةَ الإملال.

غير أنني موردٌ ما جرى في تلك الضاحية من مدينة موسكو سنة سبعة وثمانين. عندما دعتني صاحبةٌ لي إلى تناول الغداء في مطعم ريفي داخل غابة مجللة بالثلوج البيضاء. حرارةُ ما دون الصفر بخمسٍ وعشرين درجة، هذا غريب، جديد عليّ، غير أنني كنت فياضاً، مغدقاً بغير حساب. بالغٌ أوجَ عشقٍ مباغت. طام. في اندفاعتهِ الأولى حيث يختلطُ كلّ شيء بالأبد، ويظن المرء أنه ساعٍ أبداً، وأن الحالَ مقيمٌ، لن يزول.

مناضدُ خشبية، بدائيةُ الحضورِ، أطباقٌ معدةٌ مسبقاً. لفت نظري ثومٌ مخلل، شرائحُ كرنب مغموسٍ في خل، رقائقُ لحمٍ بارد. كنت نائياً عن كوني المألوف، في موضعٍ لم يخطرْ ببالي الوصولُ إليه يوماً بصحبة مَنْ قصدْتُها، مَنْ تماسَّ مكنوني بمكنونِها. اقتَرَبَ مني رجلٌ يرتدي ملابسَ الفلاحينَ الروسِ القدامى. كثُ اللحيةِ. لم أدرِ.. هل يعمل في المطعم أم وَفَدَ من الخارج.

تحدث إلى صاحبتي. أدركتُ أنه يقصدني، نظراتُه واضحةٌ. بعد أن فرغ قالت دَهِشةً.

"هناك من ينتظرُكَ بالخارج"

"أنا ؟ !!"

قمت دَهِشاً. مَنْ يطلبني هنا في هذا المنأي .. مَنْ؟

اجتزتُ البابَ المزدوج إلى الخارج بعد ارتدائي معطفي وقلنسوةَ الفرو قالت صاحبتي إن خروجي بدونها جنون مؤكد ولو.. لثوان. هكذا أعددتُ نفسي لمواجهة الخلاء غير أنني فوجئت بجلالها في الشتاء الروسي الناصع.

تقفُ مرتديةً الملابسَ ذاتَها التي رأيتُها بها في قيظِ صعيد مصرَ، ثوبٌ أحمرُ اللون. متسقٌ بدرجة ما مع خمريةِ جسدها، تبتسمُ بهدوء، تحيط كتفَ فتى تجاوزَ العشرين. متسقٍ، فيه رقةُ أبي، وامتثالُ أمي لشدائد الدهر.

بدأ عندي نغمٌ قديمٌ يمتُّ إلى موشّحٍ أندلسي، مُؤْتَزِرٍ بنغمٍ من بَشْرَف تُركيّ، وقبسٍ من ناي السهوب. كُلٌّ عندي مرادفٌ لناحية ما، لانخفاءة ما، لميل ما في طريق لم أسلكْه. هذا حدُّ الحنين الأقصى الذي ينذر بهلاك مبين.

أشارتْ فتقدمتُ. عند حد معين :

" انظر "

تطلعتُ إلى الفتى، قالت :

"هذا ابنُكَ من صُلْبك.. "

أقدمتُ. غير أنها أشارتْ بالكفّ فامتثلتُ. قالتْ :

"حملتُ به لحظةَ لقاحِ عينيك لعينيّ.."

ثم قالتْ :

"هذا عمرُ لقائنا.."

اتجهتُ صوبه. يقيني أن عنده ما عندي، لم أقدرْ على النطق. ذُهلتُ عما يحيطني. عن الثلوجِ الكثيفةِ والشجرِ المغطّي وآثار الأقدامِ المُوَلّيةِ واللحظةِ الفانية المفنيةِ. عادتْ لتشيرَ فتوقفني بإشارةٍ لا يمكن ردُّها. حركةُ يَدِها كإشارة الملكة نفرتيتي عبر الأزمنة الغابرة على جدران تلِّ العمارنة بحضرة زوجِها أولِ الموحدين. إشارةٌ مانعةٌ، حاسمةٌ، قالت :

"تلك لحظتي لأطلعك على من أنجبتَ ومن نسيتَ.."

ثم قالت :

"مَنْ يَصِرْ أبا في الترحال لا يتحققْ له لقاء.."

ثم قالت :

"الأبوة قرارٌ .. وأنت لا قرارَ لك.."

ثم قالت :

إنما أردتُ أن أطلِعَكَ لا غير.."

كدت أَفْهمِي. غير أن إشارةَ يدِها حاشتني.

ضوء

كلُّ غريبٍ جاهلٌ .

ولأنني نزلت ديارها القصية عابراً فلا أعرف شيئاً عنها ولن ألم ببعض أخبارها، لم يدمْ مُكثُها في مجال بصري إلا لحيظاتٍ مارقاتٍ. لا أعرفُ اسمها أو محيطها الذي شبَّتْ فيه. لكنها عندي مشعةٌ، وكنيتها: الأنثى الضوء..، لظهورها توقيتٌ معلومٌ. لا يحتجبُ إلاَّ عند فتورِ الهمةِ وحلولِ الغمّ ونَوْءِ الكدِّ، رأيتها في سمر قند. عندما نزلْتُها بصحبةِ جنسياتٍ شتى وبلدان قصية، احتوتني المدينة وألممتُ بآفاقها. إذ كنتُ مدججاً بما قرأْته عنها، وما عرفتُه، ما سمعته من موسيقى تمتُّ إلى أجوائها. وأشجارٍ رأيتُها في منمنمات قديمة لا عهدَ لي بها في موطني، وقبابٍ ومداخلَ وزخارفَ خزفيةٍ، لونٌ أزرقُ غالبٌ. وأصفرُ تداخلهُ حمرةٌ، وخطوطُ مهيبةٌ. راسيةٌ في الأعالي متضافرةٌ متعانقةٌ.

كنت في الحقيقة عالماً من جهة وجاهلاً من جهة.

أحتوي سمرقندي داخلي، تلك الخاصةَ بي، المنبعثةَ مني، المتصلةَ بخططي ودقائق أشواقي. ما نبثهُ تخيلي، من تلك الناحيةِ أعتبر نفسي عالماً، مُلمّاً.

لكن المدينة التي جئت إليها. القائمةَ في دوائر حسي، لا أعرف عنها إلاّ ما يفضي إليّ من خلال الأدلاء والمترجمين. لو ابتعدتُ قليلاً عن النُزل الذي أوينا إليه ربما لا يمكنني العودة، أسمعُ القومَ يتحدثون فلا أقدرُ على فهم حرفٍ من اللغة الأوزبكية.. هنا أكونُ جاهلاً.

شارعٌ يمتد في ذاكرتي الآن، متاجرُ صغيرة، كراتُ جبن مستديرةٌ رأيتُ مثلها في بلاد الأكراد، خضراواتٌ طازجةٌ ونباتاتٌ لم يقعْ بصري عليها، ما أراه غريباً يعتبر طعاماً وقوتاً لأهل الديار، أما مداخلُ المساجد الشاهقة والقبابُ المغطاةُ بقطع الخزف الأزرق والأبيض فمما أثار عجبي.

قاعة مستطيلة في بناء عتيق، مرتفع الجدران، تصطف الأرائك والمقاعد بمحاذاة الجدران، في مثل تلك الأماكن المثقلة بتردد الأنفاس تُشحَذ همتي ويطولُ إصغائي إلى الزمن المولي. الآن.. وقتَ تدويني هذه السطور يستحيل اهتدائي إلى موقعِه، حتى لو قدر لي الحلول مرة أخرى فلن يكون الظرف مماثلاً. خلال السنوات الفاصلة، انهارت دولٌ وقامت أنظمة، تبدلت أوضاع، استقلتْ بلادُ الأوزبك، وانفرطَ عقدُ الاتحاد السوفيتي. وتبدلتْ العقائد، ما مصيرُ القاعة الآن؟ ربما أصبحت مقراً لبنك أو مطعماً، أو صالة ألعاب، بل إنني أتساءل عن الأرض التي تسعى فوقها الآن إذا كانت أنفاسها تتردد، وفي أي بقعة ثوت إذا كانت قُضِيَتْ؟ ما من إجابة شافية، غير أنني أعي امتثالي للمكان، لتلك اللحظات الحاوية، باقيةٌ عندي، أرحل به، محتوياً له حتى وإن شق وصولي إليه وانتفتْ الإمكانية، لم يكن المكانُ وليس الزمانُ إلاّ إطاراً لظهورها المؤرق، لكن لمعانَها الشهْيّ لم يتمَّ بغتةً، إذ أستعيدُ ذلك الوقت

النديّ، ما بعد الظهر، أثق أنني كنت أتوقعُها، منذ متى وكيف؟ هذا مما لا أقدر على تحديده.

بعد ترحيب ومجاملة دخل عازفان ; أحدهما يمسك آلة وترية، مستديرة، مجلوة، طويلة العنق، الثاني يمسك كماناً، أشرع قوسه ومال عليه، بعدهما ظهر ثالث، اتخذ مجلسَه على مسافةٍ قليلةٍ. كان منحنياً يتطلع إلى الناي الخشبي، الغليظ بالقياس إلى ما رأيت من قبل.

بدأ الثاني بتمرير قوسه على الأوتار، أناتٌ وعرةٌ، شجنٌ نفاذٌ، أنغامٌ حزينةٌ، أسياقةٌ. سرعان ما تبعتْها قطراتٌ دقيقةٌ من الآلة الوترية التي لم أرَ مثلها، ثم اندلع الناي.

لم يكن هذا كله إلا تمهيداً لظهورها المشعّ، الفواح، في لحيظة يصعب تعيينها اتخذتْ طريقها إلى الصالة، هل دخلتْها وقدماها ملامستان الأرضَ؟ أم سابحةٌ في المجال؟. أصابعها مفرودةٌ، غير متضامةٍ، متباعدةٌ لكنْ كلٌ منها له وضعُهُ الخاصُ، إشارةٌ بمفردها. هفهافةٌ، رضابيةٌ. تتحرك ما بين الظل والأصل، دائماً عند الحدود الفارقة، الواصلة، التي يصعب رصْدُهَا. شَخَصْتُ إليها.

أحياناً.. ألوذ بأماكنَ معينةٍ. متقنةٍ، قائمةٍ منذ زمنٍ طويل، أتدثرُ بظلالها وأصدائها، وإني لمغرمٌ بالقباب، بقدر ما تحتويني، وتُطْلعني على استدارة الكون بقدر ما تفكُّ أسري وتَعْتِقُ ما تبقى من وثاقٍ. أوُيتُ إلى قبة الإمام الشافعي المصوغة من خشبٍ عَطِرِ الرائحة، قبةِ قايتباي، قبةِ برقوق، قبةِ مولانا وسيدنا الإمام الحسين. ولزمتُ قبةَ سيدي عمرَ بنِ الفارض المتقشفة، الزاهدة، في استانبول سمقتْ بي قبةُ الجامع الأزرق، وتحت قبةٍ صغيرةٍ مضمومةٍ، مؤثرةٍ في جامع القرويين بفاسَ امتلتُ وأصغيتُ.

تلك النوافذ العلوية، عند حدّ انتقال البناء من المربع إلى الدائري، يغطيها زجاج ملون، معشّقٌ، يواجهُ الجهاتِ الأربعَ الأصلية والفرعيةَ، داخل قبة ضريح قلاوون. ركني المتينُ في القاهرة العتيقةِ، في كل ساعة للضوء درجةُ وظلّ، تنفذُ الشمس من كُوّاتٍ مدغمةٍ في الجبس، فتحاتٍ لتمرير رسائلِ الكونِ السحيق.

الثالثةُ وسبعُ دقائقَ بعد الظهر إن صيفاً أو شتاء، لا أدري سر إتقان التوقيت، في الوقت عينهِ تظهر. رقرقةُ الضوء الخضراء على قمة العمود الأيمن، درجةٌ لا مثيل لها في النبات. تجمع مابين رواء المزروعات وجلاء الماء ورهافة النسائم ومصادر البهجة وأبدية الرياح وصفاء السرائر، تمتزج الأشعةُ السارية بالزجاج الملون، تعبر كل ساعة فتحة مغايرة تتشكل بها.

الثالثة للأخضر .

لتلك البنيةِ السمرقندية، المصوغة من نطفةِ الضوء، من تلاقحِ الأصفرِ بالأزرق بمقادير معلومة، من سر الشفق والفجر والتوق القديم. ظهورُهَا ناعمٌ، مثيرٌ للتطلعِ. جالبٌ للانشراحِ. إذ يقع بصري عليه، أظنه ماءً مقطراً معلقاً، كأنه يؤدي إلى ألوان أخرى كلُّها عند حّدٍ ما، شخصتُ متخذاً وضع الرضاعِ القديم.. تماماً كما يأمن الطفل لحظةَ استقرار الحَلَمةِ المترعةِ وتمكنهِ مع سريان الدفء الحليبي.

لاهي بالطويلة أو القصيرة. دقيقةُ الخَصْر حتى ليظنَّ الرائي أن ما بين نصفها العلوي والسفلي فراغ، باسمةٌ رغم حزن عينيها البادي، نظرتها نبوءة بتحققِ الوعود القديمة. تكوينها يبعث إلى الوعي ترتيبَ الزهور. وحضور ألوان ما بعد المطر، يغلب عليها الأخضر. وعندما يتحول النبات إلى ضوء يصبح سراً مستعصياً. درجةٌ من الاخضرار تنفي الخضرة ذاتها، لا مثيل لها. زجاجة لا يمكن تعيينها.

تابعتُ هفهفاتِ ثيابها. عند دورانها، عند تمايلها المقتصد، عند تطلعها إلى حيث لا يمكن التعيين أو الإدراك. إذ تحركُ أصابعها إنما تدل على حواف الكون. وترسل أبلغ الإشارات إلى مكامنَ في الروح يعسرُ توصيفُها.

أنا في مواجهتها غريب، عابرٌ لديارها، الخطابُ لا يتلقاه إلا المقيمُ، كيف يمكن الاستدلال على العابرِ. الراحلِ من مكان إلى آخر ومن لحظة إلى أخرى!

لم تلتقِ عيوننا إلا مقدارَ لحظاتٍ خاطفة. خلالها شبَّ التعلق واندلع الحنين، تفتقتْ بذرةُ النزوع. هكذا.. جرى ذلك التوحدُ الخاطف، النادر، الحاوي للدلالات كلِّها. لكنه جرى في ظرف غير مُواتٍ، ومن أسفٍ أنني جُبلْتُ على ردود الفعل البطيئة، المتمهلة. عندما تجد طريقها إلى النطق شفاهةً أو كتابةً يكون ذلك في الفوْتِ. الصرخةُ التي كان يجب اندلاعُها لحظةَ ولوجها عالمي انطلقْت مراتٍ لكن على غير مسمع منها وفي زمان غير الذي جمعني بها.

بَسْطُ الذراعين، محاولةُ احتوائها وفنائها عندها تمتْ.. لَكِنْ حيثُ لا توحد، حيثُ لا تَمْثُل إلاّ في أفقي.

قيامي، اتجاهي صوبها جرى، لَكِنْ بعدَ قطعِ مسافاتٍ وانقضاءِ أوقاتٍ وتبدّلِ حالات.

تساؤلاتي نَطَقْتُها ولَكِنْ على غير مسمعِهَا :

هل أنْتِ المقاماتُ والأنغامُ ذاتُها ؟

هل تتصلُ أوتارُ الدنيا كلُّها بجسدك ؟

هل تنبعُ الألحانُ منك أم مِن الآلات ؟

كافةُ ما أردتُ طرحَهُ أفضيْتُ به لَكِنْ في أوانٍ مغاير ،

نَذْرَ هجوعي، قُضِيَ أمري بعد عودتي إلى موطني، كنت أستعيدها يومياً في لحظة رؤيتي لها ثم أفقدها. إلى أن أدركْتُ وهجَ الصلةِ بين كينونتها وذلك الضوءِ الرقراق، لذا لزمتُ القبةَ يومياً. أجيء إليها في وقت معلوم. إذ تَحِلُّ الساعةُ السندسية، يبدأُ البثُّ الداخلي، فأخِفُّ وأشِفُّ، أشْخَصُ صابراً حتى لا تُفْلِتَ مني لحظةُ الاندلاع. أجتهد في تَقَصِّي ملامِحِهَا، وإذ تتحرك الرقرقةُ صوبي أسِيلُ كَمَاءِ الوردِ، تنتفضُ مكوِّناتي، أعرفُ لذةً لا عهدَ لي بها، يَسْعَى رقراقي صوبَهَا، بفارقِ ضَوْئِهَا إليَّ، تندمجُ حروفُنَا وتعلقُ بالهواءِ..

بُلْبُلَة ..

·لقيتُها في مراكش.

جرى ذلك عندما نزلتُها للمرة الثالثة، سنة خمس وتسعين، ضيفاً على ودادية سيدي ابن سليمان الجزولي صاحب "دلائل الخيرات"، أما المناسبة فاحتفاليةٌ ثقافيةٌ، شعبيةٌ، دينيةٌ بسيدي أبي العباس السبتي، وكلاهما من السبعة الرجال، حماةِ المدينةِ وأركانِ فضاءاتِها.

لم تكن زيارتاي السابقتان إلا عبوراً سريعاً، لم تدم إقامتي في أيّ منهما إلاّ ليلتين، كنت عند حدها اللامرئي وإيقاعاتها الخفية، كنت عابراً، متفرجاً من قُربٍ بعيد، تماماً مثل أي سائح. دائماً أعي عدمَ تمكني من لون بيوتها الأحمر الطوبي، وامتزاج الفضاء الصحراوي بذُرى جبال أطلس المكللة بالجليد. رغم إقامتي بها إلاّ أنني كنت بعيداً عن خباياها ونبضها وإيقاعات الحيوات بها. هذه المرة اختلفَ الأمرُ، إذ طال مُكثي، وبان عليّ سمتُ المقيمِ، مع أن زمني محدودٌ،

قليلٌ، لكنْ.. إذا عَمُقَتْ الصلاتُ وامتدتْ المودةُ واكتملَ النفوذُ تيسرت الإحاطةُ، أما لُقْيا الأنثى والتمكن منها فيحقق أقصى الدرجات، وبِهِ تتضحُ المعرفةُ وتتم.

لَزِمَني صَحْبِي من اليقظة إلى النوم. نهاراتي وأمسياتي كلها معهم، منهم جعفر الكنسوسي، وحبيب السمرقندي، ومحمد بوسكسو، وبدوي الشيرازي وأحمد التادلي، وحسُّون الإشبيلي وسعيد الغَرْناطي وحيَّان القرطبي، ومولانا الشريف محمد بن سُلَيْطين. وغيرهم كثيرون ممن عرفوني ورافقوني، وائْتَنَسْتُ بهم.

منذ وصولي كنت متحفزاً، متأهباً، متهيئاً. ذلك أن الرحيلَ يَشْحَذُ حواسِّي، ويفككُ ما يقيدُني، ويخففُ أحمالي، ومع كلِ شروعٍ يغلبُ عليّ ترقبٌ وتوقعٌ، لا يَخفتُ إلا عند عودتي إلى ديار إقامتي.

باستمرارٍ أتأهب لاستقبالِ طَلْعةٍ ينتجُ عنها طقُّ الشرارةِ. اندلاعٌ صِرْتُ تواقاً إليه، أَرجوه وأرمي إليه، ذلك أنه نادرٌ عندي، على امتدادِ عمري لم يَلُحْ لي إلا مراتٍ معدوداتٍ لا تتجاوزُ أصابعَ اليدِ الواحدة، ولا يكتمل اللهب إلا بوقود، وهذا يكون خارجَهُ وسَرْعانَ ما يذوبُ فيه. وإذ يَنْفذُ يصيرُ الأمرُ كلُّهُ إلى فَنَاء.

هذا الوهج يفاجئني بغتةً، في اللحظة والموضع الذي لا يمكن أن يخطر على بالي، ولا يسبقه أيُّ تشوّفٍ. خلال أيامي تلك قابلت من يمكنني تسميتُهن بالسَّرَابيات، ذلك أنهن ظهرن لي وكأنهن المقاصدُ التي أبغيها، غير أن ذلك سرعان ما يختفي، لا يُسفِرُ الأمرُ عن شيء.

راحت اللحظة الفارقة تدنو عصرَ اليومِ السابق على خَتْمِ مقامي بمراكش. أمضي غداً إلى بيتِ صاحبٍ حميم يقيمُ بمدينةٍ أخرى. صغيرةٍ، على حدود جبال أطلس الوسيط. خرجت عصراً من بيت الإمام السمرقندي خادم زاوية سيدي

سليمان الجزولي، بصحبة ابنهِ حبيبٍ وصاحبنا وأحيناً جعفر قاصدين مدرسةَ ابن يوسف عليه رحمةُ اللهِ الواسعةُ التي شملت كافةَ شيء، بناءً يَنِزُّ جمالاً وعتاقةً ومُثقلاً بأنفاس الراحلين، فالخطى البعيدة، والكون الممتد، والتفاني في الصنائع والدرس لا يمضي بلا أثر. بل يترك أصحابُه ما يَستَعْصِي إدراكُه بالحواس المتاحة، إنما يصل سعيُ الراحلين شحيحاً. غامضاً، وهذا ما يفرق بين البنايات الحديثة وتلك القديمة. كذلك المدن والمواضع الدارسَة. الأنفاسُ والخواطرُ والرؤى والأحلام لا تَفْنى. إنما تبقى بشكل ما، تضفي رسوخاً ورصانة.

خُصِّصَ ذلكَ العصرُ لنفرٍ من الأصلاء المراكشيين. من أهل النُكتةِ ورحالِ الطير، أما الأوَلُ فرواةٌ لنكاتٍ متوارثةٍ. بعضُها معروفُ الرواةِ والمصدرِ، والآخرُ مجهولُ المنبع. ما لفت نظري طرقُ الإلقاءِ وغرابةُ إيقاع اللفظ عندي. أما أهل الطير فلم ألتق بمثيل لهم خلال أسفاري، ولم أسمع من صحبي الذين بلغوا أنحاءً لم أعرفها. كما لا أذكرُ قراءةً لنصٍ أخبَرَ بوجودِ مثيلٍ لهم في أي موضعٍ آخرَ بالعالم. منهم نفرٌ يتقنونَ أصواتَ الحسون، والزرزورِ، والكناريا. واليمامِ والحمامِ بأنواعِه، لا يعرفونَ مفرداتِها فقط إنما إيقاعاتِها وأحوالِها وعلاماتِ حزنِها أو بهجتها أو غربتها عند بلوغها أرضاً لم تألفها أو أصواتِ وهنِها عند الإعياء أو ألمِها عند المرض أو الوقوعِ في الأسر، أو لحظةِ فقدانِ الإلفِ. أدهشني قدرتُهم على تحويل الحروف البشرية إلى مرادفٍ لأصوات الطير. وهذا مما يطول شرحُهُ. وقد أفْعَلُ.. لكن في موضعٍ غير هذا.

منهم الأطباءُ المتخصصونَ، العارفون بأوجاع الطير وأعراض أمراضها وطرق مداواتها بالأدوية الطبيعية الناجعة. بل إنهم أخصائيون متمكنون من مداواة نفوسها المعتلة. إنما الطيرُ رقيقٌ، شفيفٌ، تتقلبُ أحوالُهُ من مكانٍ إلى آخر. من وقت إلى وقت.

لن أطيلَ.. ليس هذا قصدي، إنما أردتُ ذكْرَ ما سبقَ ظهورَها. الحقُّ أن الأشياءَ مترابطةٌ، متصلةٌ، كلٌّ منها مُؤَدٍ إلى الآخر وإن اختلفتْ العناصرُ وتنافرتْ الطباعُ.

أُعِدَّ مجلسُ الطيرِ في إيوان القبلة. حيثُ المحرابُ المؤطرُ بزخارفَ جَصِّيةٍ. تَنمنمَ اليابسُ وتحولَ الجمادُ إلى أطيافٍ تستعصي على الإدراك.

صُفَّتْ المقاعدُ وجاءَ صانعٌ مراكشيٌّ بقفصٍ كبير، قِبابٌ متواليةٌ مضفرةٌ من أسلاكٍ مزخرفة، يعلوه سقفٌ محدبٌ من قِرْمِيدٍ أخضرَ، يوحي بقعرٍ مَتِيدٍ، لكنه أكبرُ من أن يتسعَ لطائرٍ وأصغرُ من تخصيصه لإنسان.

بدأ توافدُ الجمعِ، جلوسُهم، تطلعُهم وانتظارُهم..

رأيتُها.

بدت في مجال بصري بغتةً، لم أدرِ.. هل قَدِمَتْ قبلي، أم دَخَلتْ من جهةٍ لا أعرفُهَا، ظهورُها ألغى ما عداها. فيما بعد، عندما رُحْتُ أسترجعُ لحظاتِهَا وأرى في ابتعادها ما لم أُحِطْ بهِ. وقتَها أدركتُ أنها كانت تجلسُ بين اثنتين. لكلٍّ منهما خصوصيتُهَا وتفردُهَا، ربما لو رأيتُ إحداهن منفردةً لوليتُ الوجهَ إليها. لَكِنْ.. مع مثولها يصعبُ تجاوزُهَا إلى أخرياتٍ مهما بلغن من اكتمالِ الشأن.

بُلْبُلِيَّةُ الحضورِ، كونيةُ الجمالِ، مشرفةٌ على سائِرِ المَشاهد. شيرازيةُ الطلّة. بابليةُ العينين، قاهريةُ المدى، قرطبيةُ الضمة سكندريةُ السريان، أرضيةُ الغواية. مَجْمَعٌ للآفاق. تقعُد كأنها مَطْلعةٌ، مراقبةٌ لحافّةِ الدنيا، متطلعةٌ دائماً. فارعةٌ، فواحةٌ بنغمٍ غامضٍ نَفِذَ إلى أقصى نقطة في أغواري، بدأ مع ظهورها في دائرة بصري ولم ينته حتى الآن. أحياناً يَخفُتُ، مرات يشتدُّ فيقلقلني، لكنه ماثلٌ في كافةِ الأحوال.

على الفور رفرفتُ. شرَعتُ، بدأتُ حَوْمي ومحاولة دُنُوِّي، وجَّهتُ بصري أو توجَّهَ بي، وعندما بدأ إصغاؤها مثلي إلى بُنَيَّةٍ مراكشيةٍ لطيفة، راحت تتلو مقاطعَ من "منطقِ الطير" لمولانا فريد الدين العطار، فقرةً بالفارسيةِ تتلوها ترجمةٌ عربية. هزاتُ رأسِها، هيئةُ إصغائها، رفيف نظراتِها، هذا كله شجعني على سلوك هذا الدرب. بعد فراغي تقدمتُ منها غيرَ وَجِلٍ، خالياً تماما من ذلك التلعثم القديم، قِصَرُ المدةِ المتاحة يبّدلُ الخصالَ، ويقّوي ما يحتاجُ إليه المرءُ لا غير.

لا يمكن تعيين لونها أو نسبتُه إلى مرجع. إذ يقع على حدود الأحمر والبني والسمرة والأصفر المُشعَّر بياقوتية شاحبة.

هل مجيئُهَا صدفةٌ؟ أم أنه قَصْدِيٌّ؟ أم بلوغُ مَحَطٍ في رحلة السِّرب؟ شفتاها تَمُتَّان إلى عالم الكناريا. كذا ملامحُها. لها عينا قُمْرِيَّة وتوثبُ يمامة.

شيعتُ رسائلي الخفيةَ عبر نظراتي المتقدة ، اجتهدتُ في إخفاءِ النية. أن يبدو سؤالي لها واستفساري عن اسمها وعنوانها ونوعية دراستها ورقم هاتفها تلقائياً لمن يرقبنا وذا معنى بالنسبة لها. إنني غريب. عابرٌ، والنزيل الذي أوشكتْ إقامتُهُ على التمام يجوز له بعضُ مما لا يَحِلُّ للمقيم.

هدفي.. تعيينُهاَ، الاطلاعُ على اسمها ومكانها، هكذا تبدأُ الصلةُ.. لعل وعسى. مع تبليغِهَا ما بدأ عندي إن أمكنَ ذلك. وقد جرى الأمرُ كما تمنيتُ. بل.. فاق ما توقعتُ. وأحياناً يكون تحقّقُ الأمرِ مفاجئاً ومحبطاً لمن اعتادَ السعي الطويل ومواجهة الصعب!

صباحَ اليومِ التالي، قبل مغادرتي المدينة بساعتين أدرتُ قرصَ الهاتِف، وعندما أتاني صوتُها تنديتُ، إذا كان لقائي بأهلِ الطير وأطبائه وتراجمته أثار دهشتي، فإن حومي حولها ومقاربتها لي أجّج عندي ما ظننتُهُ خَبَا مع تقدمِ

العمر ، أعني اندفاعتي القديمة. إقلاعي ومحاولة احتيازِ الحضورِ المادي المحسوس، وطَرْقَ سُبُلٍ شتى لإبلاغ رسائلي.

جاءني صاحباي. جعفر الكنسوسي وحبيب السمرقندي إلى موضع إقامتي خارج المدينة، بيت جميل في غابة النخيل. لملمت حاجاتي وتجولتُ ببصري في أنحاء المكان مردداً ذلك التساؤل الذي يبدأ عند مفارقتي: هل سأَبْلُغُ ذلكَ الموضعَ مرةً أخرى؟ غير أن يقيناً عندي بانتفاء إمكانية عودتي، لا أعرف صاحبَ البيتِ المحاطِ بحديقةٍ فسيحة يتخللها نخيلٌ مثيرٌ للشجن والحنين، مازال المهندسُ الذي شيَّدَه يحتفظُ بمفاتيحه وهو صاحبٌ عزيزٌ لجعفر. أما مالكُهُ فمقيمٌ هناك في الرباط، يتردد أياماً قصيرةً خلالَ أيامِ الشتاء الدافئةِ، سَمَحَ باستضافتي بعد أن اتصلوا به، وأخبروه بنزولي المدينة. أجهلُ عنوانَهُ، ولا أعرفُ الطريقَ المُوْصلةَ إليه. وسفري إلى مراكش مرة أخرى قد يحدث وقد لا يتكرر، كيف أجيء مرةً أخرى ؟

احتويتُ بالبصر الحديقةَ الفسيحةَ. لونَ البيتِ الأحمر، مرتفعات أطلس المكللةَ بالثلوجِ كما تبدو من هنا. المدى، تموجاتِ اليابسة وأصواتَ المكان الخاصة. قصدنا فندقَ المأمونية، أمامه تنتظرني عربةٌ أرسلها صاحبي ساكن وادي زمّ، ينتظرني في بلدة تسمى "بني جرير"، عنده أقضي ليلتين ثم أقلع عائداً إلى الوطن، فارقت السيارة في ساحة الانتظار المواجهة للفندق، لحظة ملامستي الأرض أيقنت أنها "هنا"، ذات الإحساس الغائم الذي لا يمكن تعيينه. سبق وقوع بصري عليها أول مرة، بمجرد عبوري الطريق رأيتها، تقف ممشوقة، تُشهر ألقها بجوار أصص الزهور. أندلسيةِ التكوين.

نظرتها جانبية. صامتة. متطلعة، بالأمس كانت ترتدي قميصاً وبنطلوناً دلاّ على رشاقة معمارها، اليوم أراها في رداء طويل. قريب من الجلباب لكنه غير

فضفاض، يشي بتضاريسها ويشير إلى مقاماتها من بعيد. أشرتُ إليها مبتسماً، قلت لجعفر :

"إنها النظّام"

قدرت مفاجأته، لم أخبره، لم أُبْدِ أي تمهيد لظهورها. لم أتيقن حضورها. أما "النظّام" فهي الهيفاء، الحسناء، ابنة الشيخ الجليل الذي لقيه الشيخ الأكبر، وكانت باعثاً على نظم قصائد "ترجمان الأشواق" ثم وضع التفاسير التي حاول من خلالها أن يوضح.

في وقفتها وطلتها تصريح، إنها تَسْري إليّ بقدر سعيي إليها، ربما اختلف الدافع، لكن التلاقي حتميّ. فيما بعد استعدت معاني عديدة كلما مَثُلَ أمامي، تساؤل. دهشة، رجاء، غموض نبيل وسكينة لا تفارق ملامح الطيور. صافحتُها، اقترحتُ عليها مصاحبتها إلى بيتها. هكذا لوحت لجعفر وهي بجواري. تحدثت إليها بسرعة وباقتصاد، هزت رأسها قالت إنها لم تر بني ملال وسمعت عن وادي زَمّ.

هكذا قصدنا بيتها فعلاً ولكن لنخبر شقيقتها الصغرى أنها ستتغيبُ نهارين وليلة. إنهما مقيمتان في مراكش. ظروف دراستهما اضطرتهما إلى ذلك. أما الأبُ والأمُ والأشقاءُ السبعة الآخرون فمنزلهم مدينة تطوان الشمالية.

بدت صامتةً، منزويةً، كأي طائر يتخلف عن السِّرب ويواجه فراغات لم يعتد سلوكها. كنت أستفسر من السائق عن أماكن نمر بها، ومدن صغيرة نعبرها بسرعة، ثم ألتفتُ فأغدقُ عليها حنوي واهتمامي وأخبئ حيرتي فلم يحدث أن نحقق ما قصدتُ إليه بسرعة كهذه.

تبدو مستسلمةً، منطويةً على نفسها أكثر مما هي ساعية إليّ، تتطلع إلى الطريق، إلى الأفق الرحب. الأراضي المزروعة بالحشائش الخضراء، بيوت قليلة

متناثرة، إلى جبال نقترب منها بسرعة، إلى شوارع مدينة بني ملال، إلى شلالات مياه هادرة تتدفق عبر مستويات مختلفة، أصرّ السائق على مصاحبتنا إليها، طالنا رذاذ المياه، قالت :

"ما أغرَبَ ذلك"

لم أدر أي غرابة تعني. عادت إلى صمتها، لكنها نطقت مرة أخرى عندما تكرر البرق يتبعه الرعد، قالت :

"هذا مخيف.."

طريق خال تماماً، يصعد مرتفعات متوسطة وينزل برفق، ما من مركبة قادمة من الجهة المقابلة. وقتٌ يدنو من العصر، غير أن الضوء يخبو، لم يعد ممكناً تحديدُ قرص الشمس. تتوالى شواظ البرق. ينصهر الفضاء، ماذا لو انقضت الصاعقة ؟

سينتشر الخبر هكذا..

"هطلت أمس أمطار طوفانية، تخللتها رعود وبروق، أصابت الصاعقة سيارة خاصة على الطريق بين بني ملال وأبي الجعد، وعثر بداخلها على ثلاث جثث متفحمة. السائق ورجل وامرأة.."

أبتسم في مواجهة العاصفة. أن أقطع تلك المسافات ليضع البرق الوامض بجزء من الثانية حداً للماضي والحاضر والآتي، بصحبة هذه البنية التي لم أعرف عنها شيئاً بعد، دائماً أتساءل عن النهاية وكيف ؟ أين؟ متى؟ أخشى حلولها بعيداً عن دياري. الاحتمال قائم خاصة أن أسفاري تعددت والوجهات اختلفت، كافة الظروف وردت عليّ، عدا تلك العاصفة، وهذه البقاع، وتلك الرفقة، تكللت برعدة.. لم أر مطراً كهذا من قبل.عنفوان المحيط القريب يدركنا، ترى كيف واجه الأقدمون ظواهر الطبيعة تلك ؟

أنتبه .. للحظات نسيت حضورها. غابت وهي لم تبدأ بعد، يلاحقنا القصف الكوني، أمد يدي إلى حواف أصابعها، تسحبها مذعورة، تلملم ذاتها، تنأى، أبتسم مطمئناً. لا تظهر علامة ودّ حتى. بل تبدي حدة ما، يتغير لونها. لم تعد بشرتها تنتمي إلى تلك الحدود التي يتوالج عندها الأحمر بالبني، بل ازدادت مساحة الأصفر، طفا أزرق غامق، قدرت تأثير ذلك بتغير الضوء وغموق الظلال وإرهاق المسافة. تُقْتُ إلى بيتٍ، إلى سقف يؤوينا. ما خشيْتُه تعطلُ السيارةِ وبقاؤنا في العراء، أتحملُ واجباتٍ عدة تجاهَهَا. أخيراً... نقترب.

يقع بيت صاحبي في الخلاء. على حافة وادٍ منطلق حتى الأفق، يتخلله نُهير صغير. بدا البناء بتوحده وهوائي الأقمار الصناعية المستدير الضخم فوقه وكأنه محطة على طريق الأبدية.

لم يخف صاحبي إعجابه بجمالها. همس في أذني :

"عصفور.."

لم أبد تعليقاً أو دهشة لإدراكه نسبتها إلى عالم الطيور. بل إن تسميتها بالبلبلة أول ما خطر عندي لحظة إحاطتي بها بالبصر، ربما تأثرت بمجلس الطير في إيوان القبلة بمدرسة ابن يوسف، لكن.. كيف ألم صاحبي؟

شغلت بتدبير أمرنا أمامه. بما لا يمس كرامتها أو يخدش حياءها. هو صديق قديم عرفته منذ سنوات تقارب العشر في مدينة بولونيا الإيطالية، قابلته مرات في القاهرة وباريس وفي مسقط رأسه بوادي زم بعد طول ابتعاد قسري واغتراب لأمور عامة جرت في الماضي لمح إليّ ببعض منها، رجع ليبدأ مشروعات عديدة، منها مزرعة للنعام في الصحراء. يربيها ويذبحها ليبيع لحومها إلى مطاعم متخصصة وليدفع بجلودها إلى مصنع ينتج الحقائب والأحذية النادرة. اشترى منجماً للرخام، وسفناً لصيد الأسماك من المحيط، لم أعرف مقدار ما عنده أو مصادره. لم أهتم، كنت أراه قريباً مني بدرجة ما، وحيداً،

حزنه كامن، محوره بنيةُ هجرته فجأة وبدون مقدمات. رأيتها بصحبته في مصر، وما زلت أذكر فوحها وطلّها وممشوقية قوامها. ألتمس له العذر لوجده عليها. وتلميحه الدائم بها..

لم يهدأ الرعد، بل اشتد وضاقت الفواصل بين موجاته المتعاقبة، ولكن وجودنا داخل الدار بث طمأنينة وأذاب مخاوف الطريق والعراء. في البداية خلت بنفسها داخل غرفة الضيوف بالطابق الأول، طرقت الباب، كانت تجلس عند حافة الفراش الوثير بعد أن سوت أمورها. استردت كثيراً من هيئتها التي رأيتها عليها أمس، تحددت ملامحها أكثر. واتخذت شفتاها الوضع الأرق، ملست على شعرها، قلت كلمات عن المصادفة واللحظات الأولى وغرابة اللقاء، وأكدت أن اقتراب كل منا ليس مغامرة أو صدفة، من يصدق أن تلك الحجرة تجمعنا في هذا المكان النائي والعاصفة على أشدها في الخارج ؛ منذ أربعة وعشرين ساعة لم يكن أحدنا يعرف الآخر، لقاء مقدر..

نظرت إليّ مباشرة :

"حقاً "

ثم أشارت إلى الخارج :

"دار لا أعرفها .. "

سعيت إلى بث الطمأنينة بدون أن أبدو مفتعلاً. الحق أنني لم أكن مشغولاً بنيلها أو مضاجعتها، ربما لأنها أقرب مما توقعت. لأن فارقاً بين الصورة التي رأيتها على البعد وتلك الماثلة عن قرب. ربما لأنني فاشل في إبداء تلك الاندفاعة القديمة، ذلك التفجر المروع، المثري، يتباعد أمره الآن، وكلما توهمت وقوعه أتبين استحالة ذلك، آخر عهدي به في آسيا الوسطى، أثناء ترحالي بين بُخارَى وطشقند وسمرقند. ألمحت إلى قبس مما عرفته في رسالتي عن الصبابة والوجد.

فمن شاء .. عليه بمطالعة خلاصة أمري هناك، لكن.. يمكن القول والزمن مستمر في دفعي بعيداً عن أيام فورتي وشدة ولوعي ونزقي أن ذلك لم يتكرر. وأنني منذ تلك الفترة وأمري في ابتعاد وأصدائي إلى محو. ولعل ذلك بدء عين المفارقة، وهذا مما لا أفضل الخوض فيه الآن.

بَدلت ثيابي وهي مطرقة، ارتديت جلبابي المغربي الذي أفضله، خرجنا. تناولنا عشاءً مغربياً دسماً أعدته شقيقة صاحبي، أخبرني بعملها في المطبخ نهاراً كاملاً بمعاونة خادمتين، هي تسعد بذلك، صفت صواني البصطيلة، وطاجن اللحم، ثم الكسكس بالحوت، لم نكن بمفردنا، إنما جاء صاحب من الناحية، ورجل أعمال إيطالي وصديقته ممن يعملون في مزرعة النعام، لم تكن شهيتي طيبة، كنت متعباً ربما لطول المسافة، بدأ عندي تثاقل ورغبة في القيء. شربنا الشاي الأخضر ثم مضينا إلى الصالة الكبيرة، حيث جهاز التليفزيون، لم أقدر على التركيز. كان الرعدُ مستمراً. قال صاحبي : إن السماء مثقلة وإن العاصفة ستستمر غداً، أخيراً.. اكتمل انفرادنا. المكان يؤطرنا، يحددنا، تنعزل اللحظات، مرورنا بالعاصفة يتحول إلى صور وكلمات نستعيدها، تمدد كلانا. تفصلنا مسافة مقدار شبرين. هكذا تبدأ الأمور.

نطقت استفساراتي، أجابت بصدّ، توقعت البسط مع انفرادنا. بألفاظ ضنينة حدثتني عن أسرتها، عن صاحب لها في المشرق، أمير من أسرة حاكمة بدويلة خليجية، إنها تنتظره :

أين ومتى تعرفت به ؟

لم يجب ، خيل إليّ أنها قالت شيئا عن نفسها باعتبارها أميرة. فيما بعد استعدت ما كان وما قيل، أيقنت تعرضها لخديعة. أن ثمة خَلَلاً رغم مظهرها الهادئ البادي، عندما مددتُ يدي، تراجعتْ نافرة. لفت جسدها بغطاء من الصوف. شعرها المحلول أنعم، أطول، قالت بحدة :

"لن يُمس جسدي"

انكمشت، تضاءل حجمها. ازدادت بُعداً، يثقلني إعيائي. أدركتُ أنها موجودة وغير موجودة، أن حضورها مقلق. ممضّ، لم أستأنف. إنما تحركت إلى حافة الفراش ضاحكاً ضحكة قصيرة. لم أجبها عندما استفسرت عن السبب، كان دماغي مثقلاً، وأنفاسي عَثِرَة، رحت إلى النوم بسرعة رغم غرابة الوضعية. إلاّ أنني صحوتُ قرب الصبح، ظلامٌ مازال. تطلعتُ إلى الساعة التي أضعها دائماً على مقربة، كنت منتصباً إلى حد الألم، برد لاسع..

الخامسة إلاّ الربع

ما هذا الصوت ؟

شيء ما يرتطم بالأرض، يرتدّ، أتوجس، ذلك الحذر الذي يباغتني عند الصحو وانفراد الليل بي، خاصة في البعد، ألتفتُ إليها، موضعها خال، أضغط زر المصباح. لا أثر لها. عدا رائحتها. لا يمكن أن أخطئها، الوسادة في وضع مغاير، يتردد الصوت، أفارق الفراش، أحدد مكان صدوره. جهة النافذة، أزيح الستارة. أفاجأ بالنافذة مفتوحة، يتدفق هواء مُشبّع بالبرودة، أسارع بإغلاقها، تنفلتُ إلى أرض الغرفة. تقفز مرتين. إذن.. هذا مصدر الصوت الغريب. ارتطام جسدها النحيل، الطري. تحط يائسة. متطلعة، لا تبدي أي مقاومة، تتواجه نظراتنا. أنحني حتى أحتو على راحتي.

تفرد الجناح الأيسر. تميل برأسها حتى تثبت نظرها الأيمن تجاهي. تمر لحظات، لاتصدر عني أية بادرة، يتقلقل ركونها، يبقى الجناح مفروداً، منفرطاً. فاقداً القدرة، الآخر ملموم. مضموم، كأنه غير موجود. إما جناحان وإلاّ.. فلا.

ماذا أفعل ؟

تنفذ إليّ النظرة المستسلمة، الجريحة، تلفتُّ حولي، فراغ الغرفة ورحيل الليل، والنهار المقبل، والوحدة.. لم يكن بوسعي إلا إبداء الحنو.

مركز

نشر فخذاها دفئاً إلى سائر الجهات، شملني فاستنْفَرَ ما يمتّ إليَّ، رأيتهما بعد أن بلغني تضوعهما، قبل مشاهدتي وجهها والتملّي من تنمنم ملامحها، جرى ذلك في القطار السريع الواصل بين مدريد وأشبيلية مروراً بقرطبة.

متى جاءت ؟

متى دخلت وتوسدت المقعد المجاور للممر؟

ربما عند التفاتي إلى الرصيف، أو لحظة إغماضي، كنت مرهقاً لقِصَر نومي، وصحوي مبكراً، قلة هجوعي أمرٌ أعانيه منذ سنوات، ربما.. بعد احتيازي الأربعين، أو لتواتر الهموم وكثرة الانشغال !

دائماً.. ثمة رغبة مؤجلة، تمنيتُ إغفاءة ولو قصيرة، يستحيل ذلك في العربات أو الطائرات، يمكن ذلك في القطارات. هكذا تهيأت، خاصة أن المقعد مريح، والفراغ المتاح فسيح، والتناسق بين درجات الألوان متناغم، لونان متجاوران، الأخضر المرتوي، المضيء. والأصفر المشعّر بحمرة خفيفة ترسخه وتمكنه، أما الأبيض الشاهق، الحليبي فمحيط، يحف النوافذ العريضة، مع بدء التحرك المتمهل. الوثير، أرجأتُ إغماض عينيّ إلى ما بعد مفارقة القطار المدينة وانطلاقه عبر الخلاء، غير أن التفاتة غيرت وبدلت أموراً يطول شرحها، كيف.. كيف لم ألحظها؟

ترتدي سروالاً قصيراً. ما بين حافته التي تنتهي أعلى الركبتين. وحتى قدميها المدسوستين في حذاء رياضي خفيف.

حام بصري وتملّى من رُواءِ التكوين وغزارته، محددٌ، مبرمٌ، مُدلٌ حاض. عالي القِضَةِ. له ملمسُ التّمرِ النادرِ للعين الدَّربَة. دِقْليُّ النورِ. شفافٌ، كهرمانيُّ الضوء، يمكنُ رؤيةُ النواةِ الراقدةِ، المدَّثّرةِ. لا ينبتَ إلا في واحات معينة من شمال أفريقيا. درجةُ صفرته مذهلةٌ. سيَّالةٌ، تقعُ أصداءُ بشرتِها على حوافٍ عدة. لا يمكنِ القول : إنه ذهبيٌّ، أو صفراويٌّ، لكنه بين بين، يأخذ من هذا كله. فيه لمعةُ الإبريز، ورقةُ الشمسِ عند الظهور بعد احتجابٍ وراءَ غيمٍ، ونداوةُ البرتقال. مع قَبَسٍ من تلألؤِ الضوءِ المنسابِ بين فرجاتِ الأغصان أو الملامس لظلال الأمواج. لزغبها تمايلُ سنابلِ القمحِ المتهيِّئةِ للحصادِ، تستعصي على توصيفٍ دقيقٍ. يستمد حضورَهُ وتأثيرَهُ من مَصْهرِ الشمس. حيث الطاقةُ الهائلةُ، المتفاعلةُ، الهادرةُ، تجعلُهُ متماسكاً، قوياً. جاذباً. حافظاً لدوران كوكبنا، باعثاً القدرة. من تلك النواة الملتهبة أحد أسباب ظهورنا. هذا ما استوحيته من قراءاتي لأهل الفيزياء والفلك، مما انتهوا إليه أو افترضوه أن نجمنا هذا في منتصف عُمره، مضى خمسةُ ملياراتٍ من السنين ومثلُها باقيةٌ، لو لم يُخلق غيره في هذه المدة لكفى !

انبهار امتزَجَ بحذرٍ حتى لا أشطَّ. هذا حال جديد لم أعرفه، مخالفٌ لتوثبات السنين الزواهي، زمن الاندفاعات المفاجئة، والطقات المنفردة، والفورات الكاشفة، أما الآن فثمة تؤدة، غير أن اللمعة الأولى لم يهن بريقها وإن كلفتني من أمري جهداً.

سرى إليَّ ماء دافق، لا يمكن تجرعه أو صبه، إنما يدرك من خلال ما يثيره من رواء. وترقرق المواد الحافظة للصلات بين الأطراف. بدأتُ أمعنُ مع أنني مازلت في بداية المراحل.

غزيران. متواطئان.. خاصة مع اعتلاء أحدهما للآخر، سال بصري عليهما تمهل وركض وانحنى، لهما جهد المطلع، ونضارة الإشراف على بستان مثمر، وأمل الوعد بالتحصيل، وإيقاع الشطر الأول من مفتتح القصيد التالي.

كنت أتأهب لأقوم قاصداً العربة الأخرى، وعند العودة أتملى وأتمكن، غير أنها فاجأتني بقومة مباغتة. تلفتتْ حولها، شهقتْ أمامي، عمارة أنثوية. ألممت بالسكون الذي يتخلل لحظتين. والفراغ المجسد للعلاقة بين الكتلة والأخرى، صلة اللون باللون ولماذا يتضاد هذا مع ذاك.

لم تكن قصيرة، ولا يمكن القول إنها طويلة أو حتى وسط، طلتها. وضعية رأسها، يوحيان بإطار غير مدرك. يتحرك معها وبها. جليلة النظرة. شهيرة الطلعة، علوية السمت. مشهرة الصدر. أما أصابع يديها فإشارات دالة.

عمارةٌ منمنمة، بقدر ما توحي به من رقةٍ، بقدر ما تتضمن من صلابة. شفتاها مضمومتان لكنهما إعلان وبشارة، تلفتها حولها نتيجةُ ضجرٍ أو فضول أو بتأثيرٍ خفيٍّ لاهتمامي الناشبِ المندلعِ.

بصتُها الجانبية أتتْ إليَّ باليمام. ليست يمامةً. وجهُها يمتُّ بشكل ما إلى الطيور، لكنها من الجنس كله، أما تحديد النوع فصعب، وعر، استدعيت كافة ما أعرفه من أسماء الأنواع المختلفة. الورشان. الكناريا، البلابل، الزرازير، العصافير؟! عندما قابلت بُنَيَّةَ مراكش، بَرَقَ وعيي على الفور بلفظ واحد "بُلْبُلة"، غير أن هذه الضوئية حيرتني، فريدة بالفعل، لا أقول ذلك لأنها في مجالي الآن. الغالب على المرء تقليل شأن ما مضى بالقياس إلى الماثل بالفعل، خاصة عند تعلق الأمر بالأنثى، غير أنني أستعيد من عرفت، أجتهد في المقارنة بمن رأيت. فلا أجد لها مثيلاً، ولا أقدر على التحديد، إنها منزلة جديدة في تراثي.

ظهورها مترفق، هادئ السريان رغم تدملج المحسوسات مع اكتناز الفتنة وفيض الغواية، أثارت عندي هدهدة، ورغبة في الإيواء إلى العش. إلى الكِنّة، والحديث هادئ النبرة، والإصغاء على مهل، مع الإيماءات الباعثة، والنظرات المخمسة، من قبل.. كان ظهور مثلها في مجالي كفيلاً بإثارة كوامني. وبعث الرجفة، وبث الزلزلة.

دارت حول نفسها، فأيقنت أنها تلامس الأرض بأطراف أناملها، أيضاً.. تمكنت من معالمها الخلفية. وأمسكت أنفاسي تحسباً لذلك الاتساق المفرد بين استدارتين محكمتين، وبروزين مباركين. صدرها وعجزها. إفراط مبتوت واكتفاء عجب!

خاطبتها بالنظر وسائر الحواس، ما خَفِيَ منها وما ظهر عدا النطق، تالياً ألفاظ المناجاة والمناغاة القصوى. ومالا أقدر على البوح به. فما أغرب أمري. وما أكثر انطوائي على كثير لم أقله، كتمته ولم أعلنه، ولو جرى القياس بين ما بُحت به وما حُشْته لكان الفارق شاسعاً، رغم كل ما قلته وما دونته، تماما كالصلة بين القطرة والمحيط.

آه .. لو أن شجرة ألفاظي أينعت وأظهرت مكنونها، غير أن حال الصمت غلب، والكتمان طغى. وها هي الرحلة موشكة على البلوغ ولم أتفتح قط.

لزمتها بنظري، لم أحِدْ. أحيانا أتسلل بالبصة، لكنني الآن راغب في توصيل بريدي مفضوضاً. مشهراً، الوقت مسلول، والحدّ دان. تلامس خَصْرَها بأطراف أصابعها، تماماً كما تقفُ. ها لحظةُ نضجِ الثمرةِ، تلينُ، ترقُّ، يبلغُ فوحُها السُكّريّ مداه.

تجاوزت العشرين، المؤكد أنها دون الثلاثين، ذات صلة بالحياة الجامعية، دراساتها عُليا، نظارتها رقيقة الحواف. ذهبية، تطلعتُ طويلاً إلى لوحات

معلقة. وتماثيل منحوتة. وصفحات مطبوعة، وشاشات مختلفة. وارتادت مسارحَ في مدن كبيرة وأخرى صغيرة.

تواجهني بأوضاع مختلفة، كأنها أدركتْ. حاولتُ الإحاطة مع التجول، غير أن فخذيها دعامتان، منهما يبدأ التكوين، لهما المبادرة والتمهيد، لغزارة ما توالى عليّ. وليتُ وجهي إلى النافذة لأتمكن من الاستيعاب. أشجار، تلال، قوى صغيرة. بيوت مفردة، أفراد قلائل، عربات، طيور، أحجار متناثرة، كل شيء يتدفق متراجعاً إلى الخلف..

من خطا هناك ؟

من تطلع إلى الأزمنة الآتية ؟ . إلى المنقضية؟ إلى السماء الصريحة، الصحو، لا تدركني غربة عند النظر إليها. ثمة ما ينتمي إليّ هنا رغم تغير الأوقات، والقوم. وجود خفي لم ينتهِ، بل إن هذه البنية ذات الغصن الرطيب مألوفة عندي، كأني طالعت أوصافها في أحد مصادر الزمن الأول، حَاوَلْتُ استعادة أبيات الشعر العتيق التي تصف بشرة شهباء مماثلة. غير أن ذاكرتي تحتفظ بجوهر المعاني، لا تقيد حرفية النصوص.

أنثني إليها، إلى مدارها. أباغت، تتطلع نحوي. تتداخلُ نظراتنا لحيظاتٍ، بصاتٌ مارقة، غير أنها نافذة، مصائر تتحددُ عبرها، جرى لي خِلالَها أمورٌ شتى سأذكرها في موضعها. أسدلتُ القناع القديمَ، طالما أُجْهَضُ وأُحْبَط.

واجَهْتُها بالدهشة، كأنني مُباغَت بلحظها. أشاحتْ بعد أن لاحتْ وشيجةٌ، تساقَطَ داخلي بردٌ. أي فرصة أفلتتْ؟. لُمْتُ نفسي. لماذا لم أبتسمْ؟ لماذا لم أظهرْ الودَّ؟. فلأحاولْ استنفار ما تبدَّد، ما يساعدني على التمكن.

هكذا.. تهيأتُ من جديد عندما قمت لأتناول حقيبتي الصغيرة. السرعة أقل. مذيع داخلي يعلن بالأسبانية والإنجليزية بلوغ قرطبة. التماس مع المدن

للمرة الأولى باعث على متعة ورؤى، يصاحبه تأهب وانتفاض كوامن، تماماً مثل اكتشاف أنثى للمرة الأولى.

أمد يدي متجاوزاً رهافتها اليمامية. تلتفتُ، أبتسم، تحاوبني، تسري عندي البشارة، تزهزهني شقرتها، لعلي أندمج بتكوينها ويتعطر داخلي برحيقها. أدفع الباب إلى آخر المدى. تتقدمني.

رصيفٌ فسيحٌ. محطة معدنية الحضور، قضبانٌ سوداء، أسلاك كهرباء، سقف محدَّب، سلالم متحركة، لا ألقى أدنى إشارة إلى نزولي قرطبة. للاسم علاقة بالمكان أو الإنسان. هذا ما شرحته في موضع آخر. أين القرطبة إذن ؟

لم أرَ بشائرها إلا فيما وصلني من تلك البنية التي تصل مابين الإنس والطيور، تجاوزاً.. نَسَبْتُها إلى اليمام، عند طلوعها الدرج توقعت انفصالها وتحليقها، تذكرت صاحباً لي في بغداد تعرّفْتُ إليه عند إقامتي بها زمناً لا أدري كيف أعده أو أحصيه إذ يرتبط بأغرب ما مرّ بي. ولذلك أرجأْتُه إلى آخر هذا الدفتر. صاحبي هذا كان اسمه محمد القيسي، من أهل الفن والطرب، ذاع صيتُهُ في التمثيل، واقتناء الأشرطة القديمة، كان خبيراً بالمقامات والأنغام والأصوات، كافة ما يصدر عن البشر أو الحيوان أو الطيور أو تجليات الطبيعة، من مطر ورعد وبرق ونزول ثلوج، وتدحرج صخور، وخرير مياه. واحتراق شهب، وكان يكرر لكل من يعرفه أن أجمل وأعظم صوتين عرفهما، أم كلثوم ومحمد القبنجي، بعد تقاعده، وكفه عن الظهور في التليفزيون، أرسى حلمه في مقهى، أقنع المسئولين في أمانة العاصمة بإنشاء مقهى على الطراز القديم ليحفظ معالم يهددها الاندثار، الأرائك الخشبية المستطيلة، النرجيلات البصراوية، البغدادية، ذات الرشاقة الانسيابية، والتنباك غزير الرائحة، طاسات المياه النحاسية بدلا من الأكواب، علق إلى الجدران لوحات لأشهر المطربين القدامى. من مصريين وعراقيين وشوام، وجمع عشرات المواقد القديمة، وأواني غَلْي الشاي، وإعداد

القهوة، وشراب الليمون الحامض، وسماورات روسية من القرن الماضي، وطيور شتى من كل نوع اثنان، ذكر وأنثى، فوق منضدة مستديرة. يتوسط الممر المؤدي إلى مدخل المقهى المنمنم، قفص مفضض، فسيح، يسكنه البلبل العراقي وأنثاه، حكى لي محمد القيسي عنهما فقال إن صوته من أعذب ما سمع، غير أن ما يميزه وما ينفرد به طريقته في الجماع. إذ ينطلق إلى أعلى مرفرفاً، مزهواً وفي مواجهته أنثاه، وإذ يبلغان المدى، يلتصقان في توالج حميم، دافئ، محلق، متزايد ويدوم ذلك مقداراً.

أين ؟

كيف ؟

أي احتمال ؟

منذ لحيظات كانت أمامي فوق السلم الكهربائي، تتقدمني، تعلوني بدرجتين، كافة معالمها الخلفية بمتناول بصري، أنقشها في ذاكرتي، أتملّى، عند بلوغنا المخرج وقفت تتطلع إلى لوحة المواعيد. خشيت سوء الفهم. فضلت الوقوف على بعد خطوتين، إنه الخجل القديم. واستكانني لترجيع سنبلها. يتدفق العابرون. يمكنني تحديد اللحظة الفاصلة، بعد أن حَجَبَهَا عني مرورُ شابةٍ ممشوقة، صاريّةُ القوام، تحمل حقيبةً على ظهرها، عبورُها صَاحَبَ اختفاءَ صاحبتي، خَرَجَتْ من مجال بصري.

هُرِعْتُ غرباً، انثنيتُ شرقاً. تطلعتُ إلى الدرج النازل. إلى المخرج، إلى من ينتظرون عربات الأجرة، حتى وصلت الحدّ الذي يوقن فيه المرء من عبث المداومة.

وقفتُ خائباً، عَثِرَ الحظ، وقتي قصيرٌ، مؤطّر بمدّة، بمجرد ساعات، سائق ذو شارب كث :

"الموسكيتا .."

أومأ، فتحتُ الباب الخلفي، في مصر أجلس بجوار السائق، هنا أحرص على مسافة حاجزة، إني غريب، ولعل حذري يمنع أمراً. مابين ندمي على تبديد الفرصة المهدرة في القطار، واحتوائي المدينة، قطعتُ المسافة، بلغتُ نهاية الطريق الضيق، من هنا تبدو الأسوار الكهرمانية، من المحطة إلى حيث أقف مدينة حديثة، بيوتها متشابهة، نوافذها متراصة، لا تصرح بِسِمَة. ولا تفضي بملمح، لكن.. بمجرد ظهور هذا الجزء الصغير من السور القديم تفتقتْ معانٍ. وتمددتْ أبعاد

ترى.. أي نقطة من المدينة بلغتُ الآن ؟

أين تخطو ؟

ماذا ترى ؟

إلى من تتحدث ؟

أستعيد ملامحها فأرى ما لم أطلع عليه وقت تحديقي إليها. طفولة ملامحها وصفاء عينيها عبر المنظار رائق الشفافية، شمخة عنقها، تِيُولبية شفتيها.

أين هي الآن .. أين ؟

مع تقدم خطاي تزداد المساحة المرئية من سور المسجد، أتمهل.. أعي تعاقب التعابير على ملامحي. ذلك أني اثرت المجيء منفرداً. حتى أصدر من رسائلي إلى البناء ما أشاء، وأناغي الأحجار، وأخاطب النقوش، لعل وعسى.

ذلك حد السور الغربي، مرتفع، أدركه في مجمله، غير أن إشراقة مفاجئة تستدعي لحظة مقاربة شبيهة، وهنا لابد من تأنٍّ وفحص لما أعني.

للمعمار شأن

من منن الباري عليَّ. تنقلي وأسفاري. وقد بدأتْ قبل تمام وفادتي إلى الحياة الدنيا، عندما سافرتْ أمي من القاهرة إلى جهينة وأنا بعدُ جنين أتكون وأكتمل في رحمها. وهذا ماصرت إليه، فلم يكن تمامي إلا مع تعدد مرات رحيلي، وهذا موضوع يطول الحديث فيه. له محل مغاير، فيه تفصيل كثير، يمكن مطالعتُهُ في دفتر الأسفار. وعند توقفي هنا أو هناك. أسعى دائماً إلى المعمار، إنه آخر ما يبقى من الإنسان، يتحلل المأكل، والملبس، وتندثر الملامح، تمضي إلى عدم. ويبقى النحتُ، والأسسُ، والعلامات الدالة، تعقبتُ الآثار الخفية، والسماتِ الشاردة من هنا إلى هناك، وقفتُ مراتٍ في سمرقند. في بُخارى، في صحراء جوبي، في بغداد، في دمشق، وتدثرتُ بظلال السلطان أحمد والسليمانية، واحتوتني القباب. والمداخل المؤدية لحظاتِ اجتيازها وبدء النقلات، في مراكش وفاس ومدينة تونس. والقيروان، أما مُرْتَكزي ومرجعي فذلك الموروث القاهري، منه أبدأ وإليه أرجعُ. عندما نَزلتُ مدينة موريليا – سيأتي ذكر ما جرى لي فيها – لاحظتُ الأقواس والحنيات. والحدائق الداخلية، حمل الأسبان المهاجرون تقاليد العمارة العربية الأندلسية، جرى تلاقُحٌ مع العمارة الهندية القديمة فأثمر حضوراً خاصاً وفريداً، وكل من تميز تفرد، وبقدر إمعاني البصرَ في العناصر المشتركة. بقدر محاولتي تجسيدَ الانتقال والهجرات والمضي من مكان إلى آخر، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة ومن معلوم إلى مجهول، يحوي الإنسانُ مالا يعي تفصيله أو جملته. ثم يجيء من ينتمي إلى زمن آخر بعد اكتمال الدثور. وتحقق الفناء لمن رحلوا. ونقلوا وشيدوا أو تركوا أصداء أنفاسهم على الجدران. أو أبواب المقابر والمعابد، تنجلي بعض الحقائق، والخبايا، لكن، يظل ما يستعصي دائماً على الكشف، وبقدر عمق الخبيئة يكون انتقالها من زمن إلى آخر.. هكذا.

عندما رأيت جدار جامع قرطبة رصدتُ فيه جدار جامع القيروان في ديار تونس الخضراء، في القيروان البدايةُ، وفي قرطبةَ ذروةُ الرحلةِ والاستيعاب، هكذا تمتدُّ الوشيجةُ تلوَ الأخرى، وتتصل الأسباب.

زمنَ البناء في القيروان، وزمنَ البناء في قرطبة، أين كان أجدادُها، وأين كان أجدادي ؟

مع اقترابي أُشرِفُ على أنفاس الذاهبين وإبداع المجهولين، ونداءات خفية منبعثة من فسيفساء دقيقة، ونوافذَ كهمزةِ الوصل بين خارجٍ وداخل.

إني على شفا

ألملم كافة مامررتُ به من لحظات مقاربة، ما يسبق عبور الحدود الفاصلة، وبداية لِوَاح المراسي، عاينتُها عمري كله، عند اقترابي من بدايات المدن التي أبلغها أو أنزلها أول مرة، كذا قراءة الصحف الأولى في كتاب أجهل مضمونه ولم يسبق وقوفي على محتواه. تماما كشُروعي في تحسس آفاق أنثى تمهيداً للتوالج والتكوكبِ بين المدارات، لحظاتُ الاقتراب تلك من أحلى ما عرفتُ، إنها جوهرٌ، وما يليها ترديدٌ، إنها مجملٌ وما يتبعُها تفصيل.

أُواجه البناء.

يداي وراء ظهري متلامستان، حقاً.. مهما أطلت، مهما ألممت بالقراءة والتدوين. فلا شيء يماثل المعاينة والمشاهدة، أومئ.. مردداً السلام على القوم، ما تزال بقايا حضورهم ساعية، ماثلة.. فسيفساء دقيقة، ملونة. أبواب مغلقة، حنيات معلقة، أمضي بجوار الجدار الممتد، يستعرضني أو أستعرضه، أحتويه ويأخذُ مني مقداراً. صفرة الأحجار العتيقة أعاينها بترو، تمتزج عندي بما خلّفه إبريز جسدها الدافئ، الذي بدأتُ أعتاد الاتكاءَ عليه، تتوالى الأبواب الموصدة

عبر البناء الذي يحدد المساحة ويضع شكلاً للتكوين، أبلغ الطرف الشمالي حيث المنارة القصبية..

باب العفو

للوصول مراحل، قَطْعها متدرجةً يؤهل ويمهد، يساعد ولا يوهن، البناء المضموم، الحاوي، لا يسفر عن مكنونه دفعة واحدة، لابد من مدارجَ، وجهدٍ يُبْذَل، لابد للعمارة من مدخل، وإلاّ كانتْ صماء، لا تؤدي إلى غاية، وما من مدخل بدون ولوج مؤدّ، عبور الفُرَج مُوصلٍ للحياة، وكلّ دخول فيه نقصان يفضي إلى زيادة، مامن عمارة جامدة أو إنسية ارتبطتُ بها إلا لقيتُ فيها ذلك. إيقاعُ الجسد قائمٌ في المادة الوعرة، المصوغة، بوابةٌ ثم دهليزٌ فصحن مفضٍ إلى مستقر أو مستودع، الممر الفرعونيّ القديم، الضيق المؤدي إلى السعة، إلى اللاتناهي، جسر العبور من العادي إلى المقدس، الرحم المكنون حيث مدفن البذرة ومنبتها، مابين عمارة الجسد وعمارة المعبد تنقلتُ مدفوعاً بطاعتي ورغبتي في التجاوز أيضاً.

برج المئذنة في الجانب الشمالي، شقرة الجدران بشارة ظهورها مرة أخرى، كنتُ شفيفاً، متدفقاً رغم إرهاقي، مستَنْفِراً بعض كوامن الزمن الأول، حتى الآن لا أدري.. هل جرى ذلك بتأثير رؤيتي لها وتعلقي العابر، الخاطف، أم.. لبلوغي هذا الموضعَ الذي طالعتُ صوره وقرأتُ كل نصّ متاح حوله، كل المعاينة تتحول إلى صور، إلى ما يصعب تثبيته، أو الإمعانُ فيه.

أتوقف في الصحن المكشوف، يغمرني عبير أشجار البرتقال، ثمة شيء ينتظرني.. لا أدري كنهه؟!، لكن طوافي حول غموضه يوحي ويبهج، يثير

الكوامن ويبث الوعود.

هنا، في موضع محدد قامت ميضأة، أوشك على رؤية تقاطر القوم وانحنائهم وكشف المرافق والسواعد والأقدام، أصداء خرير القَطَرات، طقوس التطهر قبل القدوم.

تلك الأشجار، النخلات، ليتني ألمّ بأنسابها، بجذور سلالاتها حتى أقف على النشأة الأولى. أقف في الفراغ، متطلعاً، محاولاً تثبيتَ الموجودات في أعماق الذاكرة، لا أملك من أمرها شيئاً، لا أدري لماذا يبقى هذا، ولماذا يُمحى ذاك؟، غير أن ما يُفلِتُ خلال الأعوام الأخيرة بلا حصر، ما تحملته كثيرٌ، عند حدّ معين يبدأ المحْو.

أتطلع متمهلاً، إلى الزوايا، الأركان، إلى الكتابات العربية المنقوشة فوق الحجارة، لا أراها في آنيتها، إنّما في حضورها المستمر، منذ أن كانت معانيَ في أذهان الفعلة، الحذقة، قبل شروعهم في التخطيط والنقش، لم يكن إقدامهم مجرد عمل مجرد، إنما صلاة، ترتيلاً.

هذا شأني كلما واجهتُ نصاً عتيقاً، سواء كان حروفاً هيروغليفية أو قبطية، آشورية، بابلية، إغريقية، سومرية، مسمارية، سريانية، عبرية، لاتينية، صينية، أوردية، أو إشارات غامضة خرجت من أناملَ سرت فيها الحياة يوماً، أرقب الخطوط والأبعاد وأحاول عبور محدوديتي.

أسدد البصر لأقرأ..

"أمر عَبْدُ اللهِ عبدُ الرحمنِ أميرُ المؤمنينَ الناصرُ لدين الله أطالَ اللهُ بقاءه ببنيان هذا الوجْهِ وإحكام إتقانهِ تعظيماً لشعائرِ اللهِ ومحافظةً على حُرَمِ بيوته التي أَذِنَ اللهُ أن تُرفعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ.."

إلى أعلى كتابةٌ، ربما باللاتينية، بالإسبانية، لا أعرفُ، لكنني أفهمُ إضافاتِ

المنتصرينَ لتأكيد حوزتهم وهيمنتهم. كيف أفلتت تلك الحروف العربية؟ كيف تجاوزتْ التعصبَ واندفاعةَ الغباوةِ؟ ليس الخطوطَ فحسب. إنما هذا البناءُ كلُّه؟

يجب أن أمضي إلى أقصى الجانب الشمالي حيث البابُ المفتوحُ للزائرين، لا أعرف اسمَهُ، عنده يقف الحراس. بابُ النخيلِ مغلقٌ، موصدٌ، ألمحُ طابوراً منتظماً أمامَ مكتبٍ صغيرٍ لبطاقاتِ الزيارة.

هنا.. يوشك التهيؤ على الاكتمال، يبدأ الإقدام تجاه صميم المكان، أصغي إلى حركة أبي فجراً، تدفّقِ صنبور المياه. خروجه، إغلاقِه البابَ بحذر خشية أن يوقظنا، ابتعادِ خطواته في الحارة، تلاشيها، باتّجاه مسجد مولانا وسيدنا الإمام الحسين، أكاد أصغي إليها هنا في قرطبة، بينما الضوء يفد عليَّ بلا انقطاع.

ضوء صريح، يحتوي حركتي منذ شروعي، درجاتُه مختلفة، لا يرصدها إلا المدققُ المحققُ، في محطة القطار، داخل المركبة، وكان جسدها الكهرماني يضاد ما يغمره بضوء ناعم، وثير، مهدئ للمزعجات. أما الضوء القرطبي الذي يلف المدينة ويكشف أبعادها فمُغاير لكافة ماعهدت، غير أن مويجاته في الصحن المكشوف ذات طبيعة متمهلة، تحتويني، تبصّرني بدقائق الأمور، بمعارفَ لم أكن مُلمّاً بشيء منها قبل بلوغي المكان واللحظة.

إنه الضوء

يجب أن أتهيأ به، أن أتطهر وأتدثر، هكذا بدأت أتوضأ بالنور، ليس ذلك ما أبصر به ولا أراه، إنه القادم إليَّ، المنبعث مني، المبدد كل عتمة، البالغ كل فجّ..

باب النخيل

ثمةَ ما يؤجّجُ حنيني ويخضعني ويلزمُني الامتثالَ، من ذلك النخيلُ وهديلُ اليمامِ وصفيرُ القاطراتِ البخاريةِ وما يصلُ العصرَ بالمغربِ، وسائرُ الروائح التي سكنت حواسي، وهواجسُ الخواطرِ الوافدةُ من منابعَ قصيةٍ مجهولةٍ، لكلٍّ مفردةٍ أسبابُهَا، يصعبُ تفسيرُهَا في هذا التدوين، أما إذا ماالأتني الظروف فربما أفرد كتاباً للحنين.. لعل وعسى !

النخيل عندي له الصدارة، والمنزلة والسطوة والتطمين، أمره عندي قديم، لم أتوقف عند الباب المغلق، لم أسأل عن سبب قَصْدِه، ما تعلقتُ به اسْمُه، أحيانا يطغى على الشيء المحسوس، بل يحدد هويته وملامحه، عندما أستعيد بعض من عرفت أو حاولتُ وصلهن، أجد أن الاسم يضفي خصوصية لا أقدر على تحديد ملامحها، ثريا مثلاً كانت ستكتسب صفاتٍ أخرى لو أن اسمها مغاير. كذلك سعاد ومديحةّ. سعاد؟ .. لا يمكن أن تكون إلاّ سعاد. إنها الحروف والدلالة والمعنى كله. هذا بالنسبة لكل من عرفتهنّ أو اكتفيتُ منهن بالنظر، أحيانا أتوقف عند من أجهلها ولا أعرفها، أطلق عليها اسماً من عندي، ربما تكتمل المعرفة فأجد التطابق، أما إذا وقع الاختلاف فيظل الاسم الذي أسبغتُهُ طاغياً، مهيمناً على ذاكرتي..

النخيل ..

أتمهل أمامه، أتطلع صوب الطابور، رجال أمن، سراويل داكنة، أسلحة بادية، أبطئ خطاي.. هكذا شأني، قبل كل كشف. ما يسبق التحادي بمكانٍ أو لحظةٍ أو.. أنثى، دائماً أتمهل السعي إلى بلوغ الغاية أمتع، أما نيلها فيعني التلاشي!، لذلك أوثر التوقع إلاّ في المكاره، على أي حال المرء قُلّب.

اعتبرُت احتياز الصحن المكشوف بمثابة نقلة، بعد أن دفعتُ مقابل البطاقة، ألقيت نظرة جامعة، الصحن، البرج، الأشجار، الجموع، جنسيات شتى، يرفع أدلاء الأفواج لافتات صغيرة، لكنني مفرد، صلتي مغايرة. أنتمي إلى النخيل الذي لم يعد، كأني مالك بيتٍ جاء يتفقده بعد إقامة غيره به، لو أنها بصحبتي لأفضيت، لكم بدت منمنمة، صريحة الطلع، شديدة الغواية، أمومية الحض، مرتوية، بهية الصدر. منها زهوُ اليمامة بعد الفراغ من الحب، الرفرفة. التيه على ما عداه، الطيران عالياً، فرحاً وزقزقة، أما ضوءُ بشرتها المُصْحِبُ فألغى ماعداها. أحاول عبثاً استعادة ملمح من أي أنثى، وما أكثرهن ذلك اليوم في الصحن المكشوف، في المُغَطّى. لكنني لا أقدر، أجوس بعيني. عندي يقينٌ خفيٌ أنها مطّلِعَةٌ، مُلِمّةَ، ترقبني من موضعٍ ما. أتهيأ لاحتياز المدخل، غير أنني أتوقفُ مُباغَتاً، كأنها النقلة الأولى في مسيرتي المُضْنِيَةِ، إنّها المواجهةُ..

أَسْيَنَةُ الحَجَر

ما بين المقيم والعابر

ما بين السجين المرْغم، والزائر

ما بين الأصل والظل، مابين المنبت والفرع، مابين لحظة فانية وأخرى ساعية.. جرى اللقاء.

رغم أنني قرأت العديد من الكتب، وشاهدت صوراً شتى إلا أن بصري فوجئ، وكان حلُّ جهدي استيعاب ما تحويه ذاكرة الفراغ. في الصحن البرتقالي المكشوف ينهمر ضوء ناصع..

في الداخل ضوء من ظلال متجاورة.

أعمدة ..

بالتحديد عمودان، يعلوهما قوس على هيئة حدوة فرس، أبيض، أحمر، تتبادل الحجارة المعلقة اللونين، ملمح إنساني فيهما، يتطلعان نحوي بحذر وخشية وأسى. إنهما مقدمة الكون المتواري، أرجفني مرآهما، واتتنى لحيظة نائية..

عندما داهموا بيتنا ذات فجر أكتوبري، سنة ست وستين. بعد التفتيش اقتادني ثلاثة أشداء، يرتدون الملابس المدنية، ضابط وجنديان، عربة رمادية، قديمة الطراز، سلكتْ الطريق المحاذي للنيل حتى طرة، ثم اتجهت شرقاً، عبرت حاجزاً يحرسه جُند مدجج، ونفقاً ومضت بحذاء معسكرات جيش وشرطة، وأرض غير ممهدة، إلى أن توقفنا أمام باب كبير يتخلله آخر صغير، مكتب المأمور إلى اليمين، مكاتب الإدارة إلى اليسار، في المواجهة بوابة تتخللها قضبان حديدية، عبرها رأيت البعض يرتدون ملابس المعتقل البيضاء المائلة إلى الصفرة، يتطلعون بحذر وفضول إلى القادمين من بعيد، من عالم جَدَّتْ صلتهم به، لحظة وصولي كنت عندهم موضوعاً للفضول، للتساؤل، حتى هذه اللحظة كنت أمت بشكل ما، بدرجة ما إلى العالم الخارجي، فما زلت على العتبة.

أقف متردداً، تتراوح النظرات مني إلى الأعمدة، أتلقى ذلك الفضول الأبكم، الدال، أغمض عينيّ، أفتحهما، أفهم ما يرد إليّ وأرسل بعضاً من إشاراتي، فما بيني وبين المكان وزمانه مغاير.

أخطو فوق أرض أجهل شخوص من عبروها قبلي، لكنني أرصد ما تبقى لعل وعسى، غير أنني بمجرد اجتياز المدخل أواجه صمت الأعمدة الضاجّ بالحنين، أنتبه إلى بدء سفري عبر درجات الضوء وأطواره المتقلبة.. إنها ذاكرة الضوء ومراحله منذ وجود الومضة الأولى.

مع تمام ولوجي بدأ استسلامي الهادئ لذلك النور الخافت، المؤثر، الفياض بشجن الكون، خافت، خالص من الكدورات، يلغي ماعداه، يخف وزني ويشف ثقلي، ماحيرني.. تساؤلي عن مصادره، منابعه، طوال سعي لم أكف، حتى أيقنتُ أنني مواجه بأمر لم أعهده، وأنني بعده غير ما كنت قبله!

الأعمدة نخيلة، أقطارها متقاربة، يمكن اعتبارها أنوثية الطلع وذكورية أيضاً، توحي بهما معاً فكلها جامعة، اثنان.. اثنان.. أو .. واحد. واحد. الأصل دائماً مفرد، لا يستمر طويلاً إلى أعلى، قصر محكم، مسيطر عليه كما يبدو للطلة الأولى، لكنه مستمر، لا ينتهي. لاحدّ له، تبدأ همزة الوصل الأولى والكبرى فيما يلي القاعدة المربعة والتاج، تيجان مختلفة غير متشابهة، إنها نقطة التلاقي، محطة الارتقاء والتفرق أيضاً، منها ينبثق القوس الأول الذي يصل بالواحد التالي والثاني أو الثالث أو الرابع أو.. السابع في الوقت عينه، كل ركيزة أول وآخر، يكتمل القوس في الفراغ قبل نزوله إلى نقطة التماس الموازية، من الاجتماع تبدأ قاعدة الصعود وعند لحظة معينة، محددة يبدأ تفرع القوسين الأكبر حجماً، الأثقل وزناً، يميل الانحناء إلى يمين، إلى يسار، تستمر المتواليات إلى مالا نهاية تلاحق الأبصار أينما ولت، أينما وقعت لا تمكث، حركة غير مرئية. ضجيجها خفي، غير مسموع، أدنو متهدهداً، مفارقاً كدوراتي الأسيانة.

أي غرابة ؟

لم أعرف شيئاً كهذا.

كون مقلوب، يعلونا، صحيح أن الأرض تشدنا، تمسك بنا أن نقع في الفراغ، أن نتحول إلى كويكبات حائمة، من هذه الأرض المعتّقة كان قدومنا، وإلى ذرات النجوم نعود، هذا مقطوع به، لكن ثمة مركز وتشابه، هنا لابد من قعدة ولو يسيرة.

جاذب

أويت إلى أحد الأعمدة، طمأنتني الظلال، وانقطعت عن كل كدر وضجر، أغمضتُ عيني. أُدْرِكُ أنني ساعٍ إلى مركز ما، لا أعني المحراب. فهذا موضحٌ، مبّين، وأعرف موقِعَهُ مِمَّا طالعته، وأدركتُه. لكنني أعني آخر لا يمكن تحديده أو الإلمام به، مُخبّئ، في مكان وزمن ما، منفصل عنا، أو متصل، لا يمكن التعيين، لكل مركزه. ومما قرأتُ عنه وحاولت الإحاطة بالمتاحِ من معلومات عنه، ما يُطلق عليه في علم الفلك الجاذب الأعظم. هذا الكون الشاسع، الذي تقدر أبعاده بمليارات السنوات الضوئية، له عمر، ومن له عمر يعني ذلك أن له بداية. ومن يبدأ لابد أن يصل إلى نهاية، فلكل أول آخر، وإلاّ لما كان ثمة أول، هذا مقطوع به، ولأن كل شيء فيه يدور. فلابد من لحظة كف، لحظة تكتمل فيها المنية، تهمد الفورات، والهدير، والتهام الطاقات، ومن الهمود يكون التجدد، وما ينطبق على أنأى الأفلاك، أقصى النجوم والمجرات، نلقاه داخلنا، في الخلية التي لا يمكن مشاهدتُها إلاّ بالمجهر.

هناك.. ثمة مركز، يطلقون عليه "الجاذب الأعظم". لم يره أحد، ولم تقتنصْ أطيافَه آلاتٌ متاحة، لكنه الاستنتاج بعد إجراء حسابات دقيقة، أمكن الاستدلالُ عليه.

الجاذب الأعظم ..

بؤرةُ الكون ؟

لبّ الصيرورة ؟

يمسك الكلَّ والجزءَ حتى لا ينفرط الأمر. لكل شيء نواة، منها يبدأ الحضور وإليها ينتهي الغيابُ، مسالك لا تعرف أي تعريج. إلى جوار العمود

قعدتُ بمفردي رغم مرور كثيرين حولي، كنت مشغولاً بالنظر داخلي، حولي، إلى أركان المسجد، بالبحث عن مركز أدرك وجودهُ ولا أقف عليه.

أينما وليت وجهي لا أرى إلاّ تلك البنية الشهباوية، وفيضها الأنوثيّ الغزير. أتبع الضوء الهادئ القادم من منابعَ خفية، علوية، يعبر ما بين الأقواس والدعامات والحنيات وتجاويف الزخارف، أتلملم، أتواءم مع ذاتي مقدارَ لمحة، لكنها كافية.

الحضور كله موجز في الآن وهنا، وقتٍ ومكان، أستوثقُ أن بؤرة وقتي الآن تلك الدافئة، العابرة. تلك العلامة، دنتْ ونأتْ.

أعرف أن الوعي بسرّ النغم يعني تلاشيه، وأن الإمساك بالإيقاع إيذانٌ بفنائه. هذا ما يدفعني إلى الرحيل عبر كافة الاتجاهات، المرئية واللامدركة بالحواس. الآن.. ليس لي إلا السعي، لا وقت للتطلع هنا وهناك، الإمعان فحسب، الكفّ إبادة. التوقف فناء. أليس هذا عين ما توصلتُ إليه في كتابي "متون الأهرام"، ذلك أن الثقل هناك يبدأ من القاعدة، من الأرض يبدأ الحضور ويبدأ التدرج إلى اللانهاية، مع الارتفاع يخفّ شيئاً فشيئاً حتى يتحققَ التلاشي عند الذروة. ينتهي التكوينُ الملموس، المرئيّ، إلى آخر لا يمكن إدراكُه.

هنا في قرطبة أواجهُ أمراً محيراً. يتحدى القواعد السارية. إذ تزداد الكثافة مع الصعود، الثقل إلى أعلى، لا يمكن تعيينُ مرتكَزه، خفيّ مع أنه مشرف، مطل، هنا يبطل عمل الحواس التي نعرفها ويبدأ تأثير أخرى لا نعرفها، لم يدركها أي من حُذّاق العلم. الأعمدة، الأقواس في حركة دائمة وإن بدت لغير أهل الإدراك ثابتة.

اتخذتُ عين الوضع الذي كنتُ عليه عندما صحبني أبي طفلاً في مسقط رأسي، جهينةَ، خاض بي لجةَ المزروعات من قصب وذرة وقمح وبرسيم وسمسم ومالا أعرف له اسماً. من عادته أن يطوف بالنخيل الذي ورثه عن

والده، حوالي مائة وأربعين نخلة، أقول حوالي لأنني لا أذكر الرقم تحديداً، معظمُها مثمرٌ، لم تكن بموضع واحد، إنما موزعةً على أنحاء جهينة وأقسامها الأربعة. يشير أبي إلى كل منها :

"تلك نخلتك.."

ثم يخطو أو يقطع مسافة ليواجه أخرى :

"وهذه.."

يقول : "احفظ موضعها وراعِها .."

ترى .. هل كان يقدمني إلى النخيل أم يعرّف الأشجار بي؟

اقتفيتُ نظراتِه، استعدتُها مراراً، ورتُها عنه، كذا طَلَّتَهُ، وَقْفَتَهُ في مواجهة الجذوع والسعف والسُّباطات، غير أنني لم أرافقه في زياراته الأخيرة، انقطعت ولم ينقطع هو، مضى إلى نخلاته وحيداً. هذا ما أكده لي القومُ بعد تمامه المفاجئ، رحمه الله، عندما عدتُ إلى البلد حاولتُ السعي إلى النخيل، لكنني ضللت طريقي، ولم يدلني أحد.

نخيل متشابه كتلك الأعمدة، صارت وقفتي قلقة. غير واثقة، حائرة، والأقارب لا يساعدون، ولا يقدمون إشارة، ربما بدافع طمع أو عن جهل.

أستعيد وقفتي المفتقدة بعد أكثر من أربعين عاماً، وأين..؟ في قرطبة، في الأندلس، في القسم الأول، الأقدم، كأن عبد الرحمن الداخل وضع أساسه منذ ثلاثة عشر قرناً لأستعيد زمامي، وأتمكن. إلى هنا تفد أشجار النخيل كافة، تمر أمامي، خلفي، تنزع صفاتها ويتبقى جوهرها.

تومئ الأعمدة إلى كل مفتقد، عصيّ على الاستعادة، تتوالى في تتابع صارم، تدور حول بعضها، تتبادل المواقع، إذا رغب الناظر رؤيتها متجاورة شاهدها

كذلك، وإذا شاء معاينتها في خطوط مائلة كان له ذلك، وإذا أراد وضع حد لاستمراريتها حصل.

يستحضر البناء وما يتبعه من فراغات كافة الأصول والعناصر، من أرض وسماء، وتدبير وصدفة. واستقامة وميل، أشجار وأنهار، غيوم وظلال، كذا أصوات الكون.

أوُشكُ على اليقين أن كل من عرفتهم يتطلعون صوبي، أبي يرقبني، يمامة البشرية تحلق قربي. نتطلع إليّ، أستعيد تضاريسها، عندئذ أصفو، أشف وأرق، نفيض مني بهجة، أرغب في الانطلاق، في الرفرفة، في البوح، في تقبيل كل حي وجماد!

كل هذه الأعمدة أمامي. تؤكد بتواليها لا محدوديتها، يسري خلالها الضوء، خافتاً هنا، ساطعاً هناك، نور على نور، نور من نور، نور يهدي ونور يعشي. نور من نور. عصيّ على الإدراك، مصادره نائية، مجهولة، أُوقنُ بقربه وبعده. أستعيدُ القدرة على التوجه، على تجاهل الرصيد المتبقي.

أتمهل عند المفارق، والموضع كله نقاط تلاق وتباعُد. لحظة الاجتماع يبزغ الشقاق. كل جهة تؤدي إلى الأخرى، كل جانب هدف ومنطلق في الوقت عينه.

لا أعبأ بالوقت، زمن آخر، خاص بدأ مع ولوجي. هنا نور البداية وغسق النهاية، السقف المتواري في الأعالي، يلي سموق الأعمدة ومنحنيات الأقواس. عتمة خفيفة تسري، مؤقتة، زائلة، لا تستعصي يمكن المشاهدة عبرها.

بغتة.. ينفجر ضوء ثاقب، نافذ، يكشف أدق الذرات العالقة، أما أصداؤه فتسلك شعباً يؤدي إلى من أجهله. أتوقف عند عمود بعينه، نباتي التاج، تنبثق منه.وريقات مومئة، تعلوه قاعدة، ثم ينطلق الحجر المستقيم صاعداً يتفرع منه

قوسان قرب بدايته، آخران أكبر حجماً قرب نهايته، كل منهما ماض إلى وجهته، لكن ما رفرفني وحيرني كتابة محفورة، قديمة، أصلها كوفي وفرعها أندلسي بجوهر

لا إله إلاّ الله

محمد رسول الله

لو أني أُشهِدتُّها في مكان آخر لما توقفتُ. لكن هنا.. مغاير. تلك الحروف، هذه الكلمات ..

كيف اجتازتْ تلك الحقبَ كلِها ؟

كيف تفادتْ الأحداقَ المدققةَ. الفاحصةَ، الباحثةَ عن المحو؟

أم أنها حفرت في وقت متأخر خفية ؟

كيف نجا المسجد ذاته ؟

كيف صمدت تلك الأعمدة والأقواس والظلال، كيف بَقِيَ الضوء رغم كافة محاولات التمزيق والتغيير وتقطيع الأوصال؟

لابد أن بعض المتنفذين في القوم قدروا وتدخلوا، ألا يعني ذلك أن الإبداع الإنساني عند بلوغه الأوج لا يقهر العدم فقط، إنما يصدّ التعصب ويضع حداً لضيق النظرة.

أتهيأ للتقدم عبر الفراغات المتصلة، المنقطعة. مهما قويت الرغبة في البقاء، لابد من الخطو، التأهب للمفارقة. مغادرة البداية إلى الإضافات، هنا الأصل، ماعدا ذلك ترديدٌ وترجيع، هنا انبثاقة الخيال. بدء التكوين ومركز القضية. مايتبع مجرد تقليد وتكرار. آنستُ من الفراغ أمناً وطمأنينة.

أتلمس الحجر بالخاطرة، بالفكرة، أكاد أدرك أصداء العابرين، المولين، مامن تعلق بالحواس إلا ويخلف أثراً، غير أن إدراكه غير متاح للكل.

لابد من سعي، مهما لانت الإقامة، وتعددت فيوضاتُها فلابد من الخطو، مهما بدا الفراغ وثيراً فالخروج حتميّ والمفارقةُ ضرورة..

توالج الضوء

مع أنها عين الأعمدة من حيث الظاهر، إلاّ أن الزمن مغاير والموضعَ مختلفٌ والتطلع متقلب، هنا اكتشف التداخل، الضوء في الضوء، ونفاذ الفكرة عبر الفكرة. ولحاق اللحظة باللحظة.

تفد الأشعة منبعثة من الحجر، صادرة عن مسام لا تُرى، صخر بجوهر، لون يلد لوناً، لكل قوامه وإمكانياته، الأصفر والأزرق والأحمر أصول لا تستحدث، أما الأبيض والأسود فلا سبيل وما من شعْب مؤدّ إليهما.

إذا نَكَحَ الأزرقُ الأصفرَ يتولّدُ الأخضرُ.

امتزاجُ الأسودِ والأحمرِ منجبٌ للياقوتي

ذوبان الأحمر والأزرق يتبعه البنفسجي.

تختفي الألوانُ الأصليةُ. يمكن الاستدلالُ على حضورها في توالي الأطياف الجديدة، لكنها كلها لامعنى لها إلاّ بالأبيض، بالنور، هذا ما أدركته في القسم الثاني والذي يعرفه من اطلع على المراحل التي مرّ بها البناء. لكن.. مالم أقفْ عليه. مالم أقرأ عنه، مالم يخبرني به أحدٌ ذلك الكونُ غير المنظور، يبدأ من هنا وينتهي هنا. الضوء هنا كون مُتكوِّن، مُكوِّنٌ، يكتفي بعناصره، إذا أعْتَمَ الخارجُ

بَقِيَ على حاله. إذا أَظْلَمَتْ المصادر لم يكفّ. إذا قام حجرٌ انبعث منه، إذا أُوصِدَ بابٌ صَدَرَ عنه، إذا عشقتْه عينٌ بدا لها كما تريد، كما يهوى صاحبها، لا أدري.. هل تواطأ المهندس الذي شقّ قلب البناء، وأقام في المركز تلك الكنيسة الضخمة، الهائلة، المتنافرة.

"ياه.. لقد دمرتُمْ شيئا لامثيل له في العالم، وبنيتم ما يوجد مثله"

هذا ملك إسباني تفصلني عصورٌ عنه. لكنه فاهم، متفهّم، مثله مَنْ أوقف الكارثة، أما المهندس الذي لا أعرف عنه إلا ما يشبه اسمه، "هِوْنا رَوِيز" فلابد أنه أدرك.

رغم متانة البنيان وزخرفته، إلا أنه خفيّ، يظهر فجأة بدون تمهيد، يكتشفها الساعي فجأة. من داخله تبدو أعمدة المسجد متحلقة، متطلعة، وأقواسه التي انفصلت عن مثيلاتها، بعضها وحيد، منبت، لكنه شاخص، متصل وإن لم يتصل. بدون تدرج، بلا تمهيد، تبدو فجأة للزائر الساعي، لا يرى ملامحها المغايرة إلا عند محاذاتها ثم الولوج داخلها.

ماذا يعني اختفاء البناء المغاير؟

بماذا تفسر الظهور المفاجئ للكنيسة رغم ضخامتها ؟

هل قَصَدَ المهندس ، المخطط ذلك ؟

النور في فراغاتها أَصْرَحُ، أسطع، لكنه ينهل من المنابع ذاتها، عند التطلع من داخلها إلى الأعمدة البادية، تبدو دانية، قريبة، هكذا جمعٌ وفرقٌ، وصل وقطعٌ، استعان بالضوء على تحقيق الوحدة والفصل.

لماذا لا يكون حضور البناء المغاير إشارةً على الجمع بدلاً من التفرق؟

أطوف، أتقدم، أتراجع، أتَنَمْنَمَ، أنتظر مرور الجماعات الزائرة، أتجنبها، كنت راغباً في تحقيق الانفراد، الإصغاء، اختزاق العصور البائدة بحواسي، لا أسعى إلى ملموس، لكن قصدي معانٍ لم يتوقف عندها أحد، لم يشملها تدوين.

لكم توقفت أمام كوات ومقرنصات وزخارف وزجاج معشق بالجبس وقناديل معلقة وخطوط متعاقبة وظلال من ذكريات مولية، لكن شتان مابين رسوي هنا وهناك في سائر مواضع العبادة التي عرفتُها. وهذا المسجد الظاهر. الخفيّ. المتفرد.

كنتُ مضطرباً، وعندي شوقٌ وشَرَهٌ، أن أرى ما رآه كل من سبقني، أن أطلع على شيء لم يستدل عليه أحد قبلي، أن أقف على مجمل التفسيرات المحتملة في الأزمنة القادمة، العصور التي لن أبلغها.

أتوقف أمام لوحة رخامية.

ألتفتُ ..

لا أحد .

لماذا أيقنتُ بوقوع ظلها وحومان فتنتها، وحضورها القريب ؟

يبدأ رحيلي مع القلم الكوفيّ، كل ما تقع عليه عيني يجاوبني، يسلم ويبلغني البوح، لو لمستُ الحجر لواجهتُ رد فعل ما، لا أقدر على تحديده.

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد أن لا اله إلاّ الله

ماشاء اللهُ كان

ولا حولَ ولا قوة إلاّ بالله

أتوقفُ ..

أنثني مكرراً القراءة، مرة بالنطق، ومرة بالصمت، أنتبه إلى رجل متوسط القامة، يتطلع نحوي، في قسماته شَبَهٌ منها، يحسم أمرَهُ، يدنو مني.

يستفسر بالإنجليزية، أو هكذا فهمتُ ..

ماذا تقول ؟

يشير إلى اللوحة، أبدأ محاولاً الترجمة، لا أتعثر، كأني أحفظ السطور كلها بلغات مغايرة.

ماشاء الله كان

عندما فرغت لم يكن في جواري اختفى، لم أهتمّ. إذ عاودني اليقين أنني أتحرك في دائرة بصرها. أقرب إليَّ مما أتوقع، أن شُقْرة جسدها ليست مستمدة إلاّ من تلك المويجات الهادئة السارية، ملامحُها الهادئة، الراسخة، الواثقة، مبثوثةٌ عبر الوجوه كلها.

رؤية عابرة أو هكذا خُيل إليّ صارت مرجعاً وسنداً..

أخطو. لا أرجع إلى نقطة أو لحظة توحدت بها، توقيتي صار مني، منقطعاً عما حولي، أتوقف، أطل، أنظر، وعند حد معين أخلي مكاني لأنتقل إلى غيره بدافع غامض يعسر عليَّ وصفُه أو تفسيره. لا أدري هل اقتربتُ من المحراب أو اقترب مني؟، تبدو الأقواس وتتجاور الفصوص. يبلغ الحجر الصقيل درجة من الإفصاح عن المكنون، يومئ. يشير، يدل، ألتفتُ مرة..

شخوصُ الأعمدة. من منتصف الخط المواجه يمكن رؤيتها كلّها مجتمعة، متفرقة، متطلعة، ناظرة، حتى المناطق العلوية أو المعتمة فثمة إيماءات واردة منها وضرورة. إظلامها الخفيف جاء بترتيب مقصود وغير مقصود. فلو أن الضوء

سَرَى من المركز إلى كلِ الأطراف، لو أنه قصد النواحي كلها وسائر الزوايا والأركان لما أمكن رؤيته أو الإبصار به. أو معرفةُ الظل من نقيضه، فالنور لا يُعرف بالنور، إنما بالعتمة. هكذا.. لا يمكن إدراك القوة إلاّ من خلال الوهن، والسطوع عبر الخفوت، كلاهما لازم، وبدون الامتثال لايمكن إدراكُ أو فهمُ تلك الزرقة، والحمرة، والشقرة الصهباء. وسكينة الحجر المتراص.

أدنو من الانفراجة المحكمة. حيث يبدو لناقص الدُرْبة أنه بالغ حده، أنه سينثني بعد خطوتين أو ثلاث، لكن .. من أدرك الإشارة يعي خلاف ذلك.

ثمة مصدر، ثمة مركز..

ربما أمامي، فوقي، تحتي، حولي، عندي، بدايةُ وغايةُ. إنه حدّ الضامّ والمضموم. الوقت عصرُ ديمومي، لم أتطلعْ إلى ساعة. إنما دليلي حسي وكفايتي. تجاوز المحراب محال، في الابتعاد أكثر هلاك، التطلع مع التزام الحشمة هو الغاية. لذا وجب السجود..

عصر

إنه الوقت الموازي لبدء حنيني عند استعادة ماجرى، المترجم في تلك الدرجة من اللون المعتق، تمسك بناصية الأحمر والأخضر الغامق والأصفر المحال !

تصطفّ كافة الأعمدة خلفي، كل عمود وقعتْ عليه عيني، ليس هنا فقط. إنّما في سائر محطات عمري، تشخصُ الكواتُ بعيدة المنال، بدءاً من مسجد سيدي مرزوق، وضريح سيدي ومولاي الحسين، القاهري، وضريحه الكربلائي، ومشهده الدمشقي، إلى هذا التكوين القرطبي الضامّ.

تلك الذرات المنتظمة، الدائرة، الواصلة مابين المنبع والمصب، تخف الرحْل، بل تختفي تماماً، تنفضّ الزحمة، يخلو الفراغ من الفضول، والضجيج والشروح، يتلملم محتوياً ضوءه، وأنفاس القدامى العابرين، أنفرد بالفائت والقادم، وما

بينهما أشفّ وأذوي، تقرأني الآيات المنقوشة بالخط الكوفيّ، من الحجر يبدأ السعي صوبي، يتألق الضوء مسترسلاً.

إنه لونها.

أمعن في السجود صوب لب القصد، وجوهر الوقت، مستوعباً المكان كله عندي، بأقسامه ومدارجه ومراحله، وكل تلقّ ممكن واستيعابٌ محتمل، أضمه ويضمني، غير أن التمام يعني دنوّ الرحيل. ألم يقل السابقون إن الراحلة إذا اكتملت ذهبت؟

يتماسُّ مرفقي بمقدمه ركبتي، على مهل أزداد اقتراباً من هيئة الطائر، تتزايد عندي الرفرفة، أعي خفتي وبدء إقلاعي، أغمض عينيَّ لليسر والنشوة الهادئة. وكلاهما لم أعهدهما من قبل، أسري عبر الضوء، يصبح الموضع كله في متناولي، أنفذ من سائر الكوات.

فراغ يفيض بتلك الشقرة الضوئية، بريقات كهرمانية تبثها شمس أصيلية محدقة، وصمت أبدي سَمَحَ بإصغائي إلى تحليقها صوبي، واقترابِ دفئها من محاذاتي، فتهيأتُ للبث والتلقي.

طليطلية

لا أطمئن إلا قرب الأرض، مُكثي في الطوابق العليا يثير اضطرابي ويقلقل نومي، إذا اضطررتُ إلى ركوب البحر أتعجل نزولي إلى البر. أثناء سفري جواً يتضاعف قلقي عند قطع المسافات فوق البحار. حتى إذا لاحت الأرض من علو شاهق يحل بي أُنسٌ غامض، مع أن العلوّ الشاهق لا يتبدل ولا يتغير.

حتى سنواتٍ قريبة لم يكن حالي، لكنني وعيتُ بالأرض منذ أمد ليس بالقليل.

ربما بعد فوتي الأربعين. ربما بعد استقرار أبي وأمي داخلها واتحادهما بمكوناتها، وبدء تأهبي لرقدتي إذا ما احتواني عين الموضع الذي أعددته لذلك، حتى إنني أجتهد لأرى بعين البصيرة رقدتي الليلة الأولى، واستسلام ملامحي، بعد انتهاء الصراع، وكمال صورتي الإنسية قبل تبددها وذهابها الكلي، لو الأمر بيدي لتحسستُ كل موضع وطئته، وملست عليه وسألته عمن عبره قبلي؟

غير أنني لم أتوقع قربي واندماجي بتلك الدرجة التي جرت لي في طليطلة، نزلتها سبع ليال، وفي الأخيرة خرجت من فندق الجريكو حيث يقيم بعض صحبي، قاصداً فندقي الواقع قرب بوابة الشمس العتيقة، عند بداية الطريق الصاعد إلى مسجد النور، الصغير، المضموم، الملموم، الشجي.

أيامٌ قصارٌ لكنها كثيفة. لم أكفّ عن الطواف بدروبها، بحواريها الطالعة، النازلة، المرصوفة بأحجار عتيقة، بيوتها متقاربة الواجهات، دمشقية المداخل والنوافذ، ثمة بريد ساري في الفراغ لا يفضّه إلاّ من طاف وعرف ولو بعضاً من كل. به إيماءات قاهرية، وتصريحات حلبية، وأنفاس مراكشية، وحنين تعزي أوقيرواني، لستُ غافلاً عن هذا، عن العيون التي تطلعتْ، والأجسام التي تواجدتْ، وشهقات المتعة التي ترددتْ، وأصوات الصغار التي أفلتت عبر الصمت المسدل، كذا الأيادي التي صافحت أو تماسكت، والثرى الذي طوى، هذا قصدي.

تتغير التضاريس، تقوم المدن، تندثر، لكن اليابسة باقية، أرضية المسرح، حتى يحين أوان التذري في الفضاء السحيق، هذا همّ قديم، أصيل عندي، في تلك الليلة، وما بين الفندقين أصغيتُ مطولاً إلى ما خبا وابتعد، وتلفتُ بين ما

كان وما يكون، حاولت اقتفاء المندثر. ولم أُغْنَ كثيراً بتوقع الآتي، ذلك أن مراحلي انقضى معظمها، وما تبقى أقل - هذا مقطوع به - والخلاف حول المقادير لاغير. كافة ما تحقق بالوجود يترك أثراً، حتى النظرات والأصوات. هذا يقيني أعلنه ليثبته من يتوصل إلى القدرة يوما ما بعدي، طليطلة مضمومة، مؤطرة بمياه نهر التاجه من ثلاث جهات، أسوارها بادية، متموجة، وقصدها معلن.

أهبط طريقاً منحدراً، لا يدرك إلا مع بذل الجهد، أتنسم هواء الليل الإبريلي، الأندلسي، القادم عبر المروج والوديان المزروعة بأشجار الزيتون، أين مصدر النسيم؟ من أين تنبع الرياح ؟

ربما عند نقطة ما في أعماق المجرات والسدم. ربما تتصل النسمة العذبة الملاحظة، المخففة بمجمل حركة الكون. تطلعت إلى أعلى وعندي توقٌ إلى ما أجهل وحنينٌ إلى مالم أعشْهُ، ورغبةٌ في لقاء أحبةٍ غابتْ ملامحهمُ عني. واندثرت من حافظتي. سرى عندي رَجْعٌ بعيد.

أنغامٌ ترددتْ عبر الفضاءات يوماً..

حواراتٌ خافتةٌ عند دنوّ قافلة

خروجُ فتية إلى سفر طويل

إطراقةُ امرأة تفتقد الإلف

هذا بيان

ليلة سبت.. عند مداخل المقاهي والمطاعم يقف الشبان والشابات، يضج الفراغ بالحيوية، تتقاطع الوعود الغامضة، لكنها مؤدية بلا شك، عند النواصي يطالعني عناق، وضمّ، ولثم، وصبابات دافقة، وخصور متأهبة، وأكوانٌ ناعطة،

ينعشني مرأى التواصل رغم أنه باعث على شجني، خاصة في رحيلي، في انفرادي، ويأسي من ونيس.

طليطلةُ شبقةٌ، تحنو على كل ساعٍ فيها، لستُ استثناءً، دفقٌ بدأ يسري عبر أوردتي وحنايا روحي، وقديماً كان مثل ذلك يدوم ويؤجج توقدي، غير أنه الآن يثير حذري، إذ أبدأ إصغائي إلى هروع دقات قلبي، إلى متى يمكن التحمل؟ أستعيد ما قرأته عن غُدّة لا تعمل في الجسد الإنساني إلا قبل تمام الرحيل بيوم وليلة، تؤدي إلى ما يعرفُه القومُ بصحوة الموت، بل إن أكثر من صاحب محيطٍ بعلم الطب أخبروني عن قذف المني لحظة وقوع السكتة، وهذا عجيب !

أسترجع أموراً عديدة مشابهة خاصة عند اغترابي مع أن سفري لا يطول، لكنني أخاف موت الفَجْأة وأنا بعيد، ما يثير رعبي أن أقضي في ظرف لا يمكن معه عودة ما تبقى مني، لأتوسد الأرض التي يتكون ترابها من أجساد قومي، وإذا كان المصير إلى الوطء بالأقدام، فليَسْعَ فوق ذراتي إذن أهلي، يمنحني ذلك اطمئناناً في حياتي الدنيا.

يتواصل الدفقُ عندي، أتوقف، أطلق صوتاً مضموماً في مواجهة الفراغ، ألوّح بيدي متسائلا ومستفسراً ومعرباً عن حيرتي وتوقي. يَنْدُر هذا مني فجأة أثناء انفرادي أو تواحدي بين جمع مما يثير دهشة من لا يعرف.

أتوثب، هذا لم يتفق لي إلا بصحبة محبوبة. لَكَم هي نائية عني الآن، هي في بلد وأنا في بلد، لها وضع وعندي وضع، واللقاء وعر، وهذا تفصيل يطولُ أمرُه، لافائدة تُرْجَى من ذكرِها فلأقصرْ.

أتجاوز البوابةَ الأندلسية. السور القديم، البرج المربع، مداخل البيوت ذاتِ الجدران المغطاةِ ببلاطات مشرقية الزخرف، لست متهيباً، غائب عني حذري في المدن النائية، خاصة البلاد التي لا أتقن لغات أهلها. لا أعرف إلا كلماتٍ

محدودة من الإسبانية، أما الإنجليزية، فنادر من يتحدثها، بعض العناوين الأصل، ظهر اليوم تحدثت إلى بنية رقيريقة اسمها "مُدينة" واهتمت بي ق بشرية اسمها "زهراء"، شرفات بارزة، ونوافذ وافدة من مدن صغتها وص أُوغِل في دروب لم أبلغها من قبل.

يتعاظم توثبي، هذا حال جديد عليَّ. لافائدة من المقارنة، انتفى المر ابتسمتُ للواجهات. وناغيتُ الأرصفة، وعتبتُ على المداخل الصادّة، لا أعبأ بالدروب المؤدية إلى الفندق حيث مضجعي، ليلة أمس بدأ الرج ودوداً، متعاطفاً عندما عدتُ في الثانية بعد منتصف الليل، قال :

"متأخر جداً .."

أومأتُ مبتسماً، معتذراً. شاكراً. طوال إقامتي لم أسمعْ منه إلاّ تلك لكنني أتمثل ملامحه الطيبة، ولسوف أستعيده. وَلجْتُ بوابةَ الحديقة التي أعرفها. أتقدم على أصداء الضوء، مقتفيا رائحة الحشائش وتنهدات الز وطراوة الندى. تنأى الأصوات، وتخفُت أصداء النجوم. ارتعاشاتي تدف نزق مبين، إلى توثّب، إلى رغبة في الصياح، حتى أسمع كل حيّ بالمجرة.

أستعيد لحظة أو تعيدني، عندما فارقتُ مكان إقامتي ليلة وصولي الأ مدينة كبرى لا أعرف فيها شيئاً، لأتبع وصفاً أُدْلّتْ به المحبوبة حتى يتـ اللقاء، ينتفضُ قلبي، يطوحُني الحنينُ، يميل جذعُ روحي، أعجب ما يتبة أعز ما نعبره وهيّنات هشة لاتصمد حتى للتذكر، لكنها تقضقض وتزلز الروح بما يتجاوز زمن وقوعها، ترى.. كيف أستعيد هذا الدفق إذا ما استعادتُه بعد عشر أو عشرين؟

أي الملامح ستبقى ؟

أي مشاهد ستتوارى ؟

تلك الشجيرةُ؟ هذا السور القصير؟ صوت قطرات الماء المفارقةِ للصنبور؟ تلك الرائحة المنبعثة للتو؟، عبير أنثويّ عاتٍ، بكرٌ. لم يمرّ على أحد، أميل لأشمها، أبدأ انحنائي، أبسط راحتي راكعاً، أستنشق متجرعاً، ثم أعتدل لأتذوق متفحصاً.

خليط من حناء وليمون وخلاصة ياسمين، ومسامّ أنثى لم يمسسها ذكر، أقرب إلى الريحان، مززة، محرضة، تتخلل الرائحة الغضة سائر حواسي، أتنسمها بسمعي، وبصري، ومسامّ جلدي، أميل مرة أخرى فتعاودني المدهدة المورقة، اللطيفة. تقسو عليّ رغبتي. أتمدد بطولي كله، أدرك فجأة الحضور الأنثوي الداني مني، لم تعد الأرض صلبة، إنما مرققة، لينة، تطاوعني، أدرك أن طليطلة بما حوت وما جرى فيها، بعلانيتها وسرها، بفجورها وتقواها، تمنحني ما لم يعرفه بشر. هذا مكان مؤنث يعول عليه، لين، يميل معي لأتخذ الوضع الذي يمكنني، ويجعل المدينة كافة في إطاري، في متناولي، أسدّ سائر فتحاتها، تلك رغبة وافدة لم أعرف لها مثيلاً، أستعيد حلاوة المتعة الأولى، لحظة اكتشاف بلوغي وهذه الطلاوة المصاحبة لاكتمال النشوة البكرية. لكن ما أعرفه في هذا الليل الطليطلي مغاير، متجاوز لكل مألوف.

تمتد ذراعي لتضم ما وراء الظاهر، إلى مالا أدركه بالبصر، أتجرد من كافة ما يغطيني، ما يحجبني عنها. أدرك احتوائي لها، أضمها إليّ، بأشجارها، أطيارها، فصولها، أصباحها، أصائلها، أصواتها الخاصة، نواصيها، منائرها، أضوائها الهادية، ونوافذها المشرفة، وأحجارها المرصوصة، وزهورها النابتة.

هذا نكاحٌ لم أسمع بمثيله، أواصل إيلاجي إلى سائر جهاتها، أضمها إليّ، أدنو من تلك اللحظة الراجفة حيث تندمج مكوناتنا، ويصعب عليّ إدراك أجزائي من أجزائها، أعاطيها وتعاطيني. مني إليها ومنها إليّ، عبرها أسري إلى الأشجار النابتة منها بكافة أنواعها، إلى مويجات الماء المتدفقة في جداولها،

الزهور الدقيقة قصيرة المدى. إلى كل أرض سعيت فوقها.العمار. الخراب، ما طليطلة والقيروان وفاس وقابس ومراكش وشطب وسمرقند وجهينة وأخميم وبُخارى وعشق آباد وبودا وصنعاء والبصرة وقونية وقسطنطينة ورشيد ودمياط وجبل المطير إلا إشارات ومسميات، أمًا استكانتي فعند إطلالتي الحيية. التواقة. الأسبانية، عبر غصن ريحان منبثق منها، متشبثٍ بها، ذاك حسبي.

خجْلَةُ الشذا

لكل أنثى طيبها، لا يتشابه شذا إحداهن مع أخرى، وعبر أيامي عَلِقَ بي من النفح الجميل ما أنوء به، وما يفلت مني إذا اجتهدتُ في محاولة استدعائه. أصعب ما يستجيب للذكرى الأصوات والروائح. كل منهن كَوْنٌ قائم، خصوصيته مبثوثة، متوقعة، وكما تنفرد باستجاباتها في مراحل العشق المختلفة، فإن ما ينبعث منهن متنوع، ما علينا إلا التلقي والامتياز.

أعتق ما أحتفظ به، عبير "علية" - رحمها الله - ليس هذا التدوين بمناسب للحديث المفصل عنها، ذلك أنني أحطتها طفلاً وتمكنت منها قبل أن أعرف، إنما أشير إليها باعتبارها المرجع الأول لروائح بنات جنسها، أعطافها كانت تخملية، تسبقها وتتبعها. لايمت ظيبها إلى أي عطر معروف من صنع الإنسان، هي من نبهتني إلى اقتفاء عَرفهنّ، وتقصي ما يشتملن عليه، كانت نسائمها متداخلة مع قماش جلبابها الرهيف الأبيض المرصع بالدوائر الزرقاء المنجمة، ما أخذه خلال ملامسة مباشرة لمسامها. وما تفرزه روحها. وما تخلفه الظلال. والتدثر بالأغطية. والصابون المعطر، ومنابت الشعر الكثيف، علقت بي وأصبحت فيما يلي ذلك أساساً للمقارنة حتى بعد رحيلها بسنوات وما تزال. لم أتنسم مثيلاً لها إلى أن خضت اليم.

جرى ذلك في البحر الأحمر ما بين جزيرة الجفتون ومرسى الغردقة، كنت في أجازة مع امرأتي وأولادي، وأثناء العودة في قارب من طابقين. وبمجرد أن وطئته. كأني ولجت خيمة غير مرئية، لكنها عبقة بالعبير، ولم يكن وعراً عليّ تحديد المصدر.

شاب وشابة، عروسان، بدا تقاربهما مبهماً، مازالا في البداية ويبدو أنها موفقة، كانت تعلّق صليباً ذهبياً يتدلى من سلسلة نحيلة، فتحة الرداء برحة تسمح بإطلالة على مفرق النهدين، بدايتهما الثرية، تطلعهما إلى بعضهما مثير للتفاؤل، للحنين، للتقرب من كائن ما في مكان بعيد، صعب تحديده، ما من مشهد عندي يثير عندي الحنين، والترقق والتفنن، مثل عاشقين يتبادلان المحنة، لذلك أقرب الطير إليَّ اليمام لما رأيته منه عند اجتماع الإلف بأليفه.

الحق أنني بدأت التسلل البصري، تكوينها مربك لمن يتطلع إليها، لوفرتها، وصميمية استداراتها، لكن ذلك لم يكن قصدي، لحضور عريسها هيبة لم أشأ انتهاكها حتى بالصمت، ما جذبني شذاها، لم أعرف مثل ذلك، غطت على ما عداها، بل طغت..

تجلس على المقعد العريض الخلفي، قرب الماء المتراجع بزبده الأبيض الكثيف، رائحة البحر النفاذة تتصاعد إلى الفراغ المحيط، يودُّ ناشع، زرقة متنفدة، أنتبه إلى تزايد فوحها، تجاوره بفيض البحر ثم تجاوزه، احتوائه لما يضمه اليم، مرجانه وكهوفه وأسماكه. أستعيد رائحة علية المخملية، الموحية بالأسرار. الواعدة بتفسيرها، بفضها أيضاً. لم تكن هي تماماً، لكنها قريبة منها، مصونة، مُذكية، أجَّاجة، محركة لما يكمن عندي.

أكف لحيظات احتراماً وحسرة، أما الاحترام فلذكرى عطر محبوبة سلافية روسية، كونية، بدأت معرفتي بها في طشقند، وتوطدت في موسكو والقاهرة. ورغم تعدد إشاراتي إليها وتطرقي إلى ذكر بعض التفاصيل أحياناً إلاّ أنني لم

أُفِضْ إلاّ بقدر، ولم أبُحْ إلاّ بالقدر اليسير، الحق.. أن المرء مهما بلغت نصاعتّه ودرجة صراحته، وقدرته على المكاشفة فتظل عدة ساحات عنده لا يطرقها ولا يدنو منها، ولسوف أكتمل رحيلاً بدون اطلاع مخلوق عليها. ونصيب هذه البنية من تلك التخوم كثير، كلما توهمتُ شبها بمخلوقة غيرها يخيب ظني ويأفل وهمي، ربما ألمح منها قبساً في هذه أو تلك، ولكن فرادتها مطلقة. وقد بددتها بنفسي وقصر نظري، صحيح أن الظروف لم تساعد، ثم جرى ما أضاف عسراً على عسر، لكنني مسئول عن الوزر كله، وها أنذا أنوء به وأتقضقض ومنه تنبعث حسراتي.

أغار على صورتها عندي إذا وجدت عندي نزوعاً إلى أخرى ماثلة أمام حواسي. ألوذ بكافة الزوايا التي علقت بذاكرتي التي وهنت بالنسبة لكل شيء عداها، هكذا حاولتُ التحصن بما تبقى عندي من شذاها، غير أن الفوح المنبعث من تلك البنية كان أوعر وأنكى، وجدتُ فيه الخلاصة، ازددت قرباً من مخملها، ما ينبعث منها يوقع الجذب، بالتدقيق يتضح التنوع، فلمنابت شعرها عطر، ولانبعاث نظراتها، ولشفتيها قوة البوح العنبرية، لكل أفق من آفاقها أريج وطلة مغايرة، تقلبتُ ما بين ظاهرها وباطنها، تمرغتُ ما بين ظاهرها وخفيها، ما بين سداها ولحمتها، لكن أغرب ما عاينته خجلةُ الشذا، فكلما اقتربت تراجعَ طيبُها، وكلما حاولت راح مني، يتوارى، أجتهد لاستدعائه، فلا يمكنني ذلك، لم أعرف رواءً لشفتين مخلوقتين كشفتيها. لهما رائحة شقائق النعمان، إذ يشتد شجني أحاول تلطيف حالي باستعادة صورها والفرجة عليها. أو قراءة رسائلها بصوت مرتفع، أنغم كلماتها، أرتلها.. لعل وعسى، أخرج هذه الوريقة الصغيرة المنتزعة من دفتر، خطتْ عنوانها بالروسية والإنجليزية التي تجيدها. ربما أخط رسالة جديدة أشيعها إلى العنوان الذي أنقشه على مسارات نظري ودفقات قلبي. يمكنني النطق به حتى ليظن المستمع أنني متقن للغة أهل البلاد، مع أنني لا أفقه منها إلاّ حروف اسمها.

العروس تتطلع، عينان جريئتان، ناكحتان، نفاذتان، أيقنتُ أنها تأخذ المبادرة عند الخلوة، غير أن أفدح ما عندها نسيمها، ولأنني مدرك موقوتية الرحلة وقصرها، لم أعد حذراً كبداية اكتشافي لها. وصار حضور محبوبة الزمن القديم بدافع إراحة الضمير والاعتذار المستتر وليس الوقاية، تجلس متململة حاضة، محرضة، غير أنني انتبهت إلى تمهل القارب، وارتفاع الموج، يتدافع الرذاذ صوب الجدران الخشبية المطلية بالأبيض، ماذا يجري ؟

تستنفر خشيتي من الماء، يتقلب اليم، الموج قادم، متدافع، يحل بعضه مكان بعض، ثمة شيء يجرى، أتابع حركة البحار القلقة، لا أسأل، غير أنني أرصد ذلك التغير الذي وقع بمساحات شاسعة من المسطح المتموج الفوار، يتأجج كالقدر المغلي.

دوائر صفراء، تظهر، تتصل لتشكل بقعاً أكبر، درجة من الصفرة الخاصة مصحوبة برائحة تدنو من رائحة المنيّ الطازج. المرسل للتو. وتلك رائحة أعرفها جيداً. اكتشفتُها في الطين المتخمر، والأرض المحروثة، ورَصَدْتُها في الفراغ مواسمَ تلقيح النبات.

أقف.. أتطلع إلى البحر مدركا لما يجري، مفسراً لنفسي ما يحيّر القوم، يوماً ما، مضيت إلى جزيرة في عمق البحر، هذا البحر عينه، اسمها الاخوين، تقع عند خط الحدود الوهمي المار عبر الماء، كان ذلك زمنَ الحرب، عندما عملتُ مراسلاً حربياً بدافع مني لمشاركة أهلي محنةً كبرى، ولتهدئة روحي بتواجدي بين المقاتلين في خطوط المواجهة. كانت الجزيرة نائية، تتمركز بها سَرِيّة صاعقة يتكلم قائدها بلهجة جنوبية جاوبتُه بمثلها، فما أنا إلاّ جنوبيّ الجوهر. هناك ماتزال الطبيعة في بداياتها، الشفق، وتوالي الفجر، واكتمال العصر والغسق. ميلاد الضوء، خروج الشمس من الأفق على الصخور والمياه والفراغات التحتية، العلوية، مع آخر ضوء يبدأ توافد النجوم، بلا حصر، لايمكن رؤيتها في

المدن، قريبة، دانية، وفي الصمت تتردد قعقعات شمولية. قال الضابط إن المنطقة غير مستقرة، إنها بدايات الزلزلة، مع الغروب ينفرد الكائن بالمكوّن، يتصل القديم بالمحدث، تصفو الموجودات وتشف، بالنظر لمحتُ ذات اللون الأصفر، عينَ تلك الدرجة، قال قائد الزورق الذي صَحِبنا وجئنا به، وهو بحار قديم، من أهل القصير، يحفظ دروب البحر من السويس شمالاً إلى باب المندب جنوباً، حتى لينظر في ظلمة الليل إلى الأمواج فيدرك من أصداء النجوم موقعَه وإلى أين تمضي وجهته. قال إنه سفاد البحر، قال إن الشعاب والمكونات التحتية التي نعرف بعضها ولا نحيط بالآخر تتوالد فيما بينها، ولها مواقيت تستتار فيها. تماماً كما يجري للرجل أو الذكر من الحيوان، فإذا جرى ذلك تفرز هذا السائل، منيّ البحر لتتشبع به الشعاب الأنثوية، والكوينات المتلقية، أما الرائحة فقوية، تتجاوز المحدودية الأرضية.

أرقب العروس، تميل إلى البحر سافرة عن وجه يتفجر بالرغبة، لم تعد تنظر إلى الشاب الذي انزوى وتشاغل بالنظر إلى ما بين قدميه، وكلما تزايد دفقُ عبيرها، قَوِيَ الموجُ، واتّسَعَ الموج الأصفر، وعندئذ انتبهتُ إلى البحّار النحيل الأسمر، المجرب، ينقل البصر بين البحر والشابة الفواحة..

بُريقة..

شغفني بالسماع التركي قديم، دلّني عليه – مطلعَ الستينات – أديب متمكن، عاشق للحياة صحبته زمناً، أعني محمود البدوي رحمه الله. كنا نمشي ما بين قبة الغوري ومسجده، كان يحمل حقيبة أوراق سوداء، عندما قال :

"وفي الليل أدير المؤشر إلى إذاعة استانبول. أسمع البشارف والموشحات فأجد منها ما يُحدث عندي شجناً.."

لا أذكر الآن السياق الذي قيلت فيه العبارة، لكنني أستعيد إصغائي الأول. وبعده لزمتُ، لا أعرف اللغة. غير أني ألممت بالأصوات. لها عذوبة وتمكُّن، حددتُ مواضع البث ومواقيتهَ. وسجّلتُ ما تيسّر في ليالي الصفو عندما يصل الصوت نقياً، واضحاً. خلواً من التشويش. خاصة ليالي رمضان التي يمتد فيها السهر حتى مطلع الفجر. كلما سافر صاحبٌ إلى هناك رجوتُه إحضارَ بعض التسجيلات، هكذا تجمع عندي مالا بأس به، غير أنني لم أكفّ عن التطلع إلى الرحيل، ونزول تلك الديار لأختار وأصغي إلى الأصوات الشجية إذا ما سَنَحَتْ الفرصة. إلى أن تحقق ذلك عامَ ثلاثة وتسعين، عندما جئت إلى استانبول وأقمت بها أسبوعاً. جئتُها من قبلُ عابراً. مرة أمضيتُ فيها نهاراً عندما قطعتُ المسافة بحراً من الساحل البلغاري في مركب سياحية، والثانية لمدة ثلاث ساعات وكنتُ في الطريق إلى بغداد من وارسو. والثالثة عندما وقع خلل في الطائرة المتجهة من القاهرة إلى موسكو. أمضيتُ ليلةً غريبة لكن ما جرى خلالها لا يناسب هذا التكوين. خلال الأيام السبعة جُسْتُ في دروب المدينة القديمة. تدثرتُ بظلالها. واحتويت لحظاتِها الغُروبية. رماديةَ مبانيها، انتشيتُ في مقهى "علي باشا مدرسة". القائم بين مقابر دراويش المولوية الغاربين، ترددت مراتٍ على المعرض الفسيح للأشرطة والاسطوانات القريب من السوق المغطى. خرجت منه قبل إغلاق بوابات السوق الرئيسية، كنت متعباً لكنني راض بما اقتنيتُهُ.

توقفتُ عند ساحة صغيرة تعبرها العربات. لحظاتِ مغادرة القوة المباني الضخمة والمتاجر. يتدفقون إلى الطرقات، إلى الحافلات، إلى أماكن الانتظار، بعد قليل تُقْفِرُ الطرقات، تخلو إلا من الغرباء وسفي الرياح وزخات أمطار متفرقة وزمن غارب.

كنت متعباً بعد تجوال ساعات. استندت إلى عامود صغير من حجر، لم أتوقع شيئاً غير عادي، شغلني الوصول إلى الفندق. عند هذا الحد جرى ظهورها.

لم تكن راحلة، إنما بزغت راكبةً، تقود سيارةً رمادية، تتطلع إليَّ، كم استغرق بقاؤها في مجال بصري؟

التحديد وعر، لم يكن ظهورها إلا عابراً، مفاجئاً، لكنه امتد عندي إلى ماقبله ومابعده، هذا الظهور المباغت، الخاطف ليس جديداً عندي، جرى لي مرات، أذكر منها صباح ذلك اليوم، عندما كنت أقف مطلاً من نافذة قاعة الرسم بالطابق الرابع من مبنى المؤسسة القريب من النهر، كنت أعمل بها مصمماً للسجاد الشرقي الذي درستُه. خاصةً الشيرازي والتبريزي وبخارى الياقوتي الذي برعتُ فيه، كان الضوء حليبياً والوقت معيناً والفراغ محلّىً بالوَهَجِ القادم من فرن الحلوى هناك في الطابق الأول، كنتُ أفكر في نخلتين بالتحديد قائمتيْن بفناء وكالة بازرعة في الجمالية، كيف نفذتا من زمن إلى زمن حتى وصلتا إلى وقتنا؟ ، فجأة فُتِحَ الشباكُ المواجه. رأيتُ أنثى بهية، روية، تفرد ذراعيها، تواجهني عارية تماماً. ولا أظن أنني قابلت نهدينْ في مثل شروع ونفور واكتمال ما وُوجِهْتُ به. لم أستطعْ إبداء أيّ رد فعل، وعندما كدتُ أفتح فمي أغلقتْ النافذة، وانتظرتُ أربع سنوات، مُدّةَ مكثي في المؤسسة قبل أن أغادرها مرغماً، منفياً إلى الجنوب، لم تفتحْ قط، ولا أراها إلا مغلقة كلما مررتُ وتطلعتُ، ولم أنقطعْ.. لعلّ وعسى!

مرةً أخرى. كنت في روما، بعد منتصف الليل توقفتْ العربات عند ظهور الضوء الأحمر، إلى جواري واحدٌ ممن أحببتُ وصحبت وتمنيتُ دوامَ الرفقة، غير أن القدر لم يُسْعِفْني ولم يمهلْه. أعني شادي عبد السلام صاحبَ المومياء رحمه الله. كنا في نشوةٍ بتأثير نبيذٍ جيد. وطعامٍ بحريٍّ ممتع. ولا أذكر الآن

موضوع حوارنا، لكنني أكاد أرى لحظة فتح باب العربة المجاورة واندفاعَ شابة عارية تماماً. حافية. ضفيرتُها الشهباءُ الغليظة. تهتزُّ على ظهرها وتناوشُ مفرقَ ردفيْها الأشميْن، صحتُ :

"انظر يا شادي .."

تجري بين السيارات التي بدأت الحركة.

" شادي.."

تطلع متمهلاً، قال بتأنيه الذي عُرف عنه إنه لا يرى شيئاً، وحتى الآن لا أدري إذا ما كنتُ رأيتُ أم أنه لم يشاهِدْ كما أصرّ. غير أن تلك الملامح التي بَرقَتْ قرب السوق المغطّى أحاطت بجهاتي، لم أدر أن جملة نطقها محمود البَدوي ستتجه بي إلى حيث ألقَى ما ألقَى، ولا أعني انبثاق هذه الملامح البديعة، إنما جرى لي ما يتصل بتلك الديار ما سأذكره في موضعه. عَلِقَ الوجه كالأيقونة في فضاء روحي، اعتبرتُ سنواتي كلها منذ أن أصغيت إلى عبارة البدوي مقدمة لرؤيتها، لكن.. ماهذا كله إلا تفسيرات ومحاولات للتهدئة، لتقوية الأمل الحاثّ على وقوع البصر عليها مرة أخرى، احتواءِ طلْعِها النضيد.. اسْتُنِفْرتُ

التشبيه وعر، لكن ما بَقيَ عندي منها لونان اثنان، أصفر وأزرق بكافة درجاتهما، واشتقاقاتهما، صِبغَ شعرها الأشمُّ، المسترسِلُ مِنْ كافة اللحظات الغُروبية.

موضع عينيها حُقّان من فيروز مصهور. زرقةٌ صافية تفيض وتضفي عمقاً، وكان ممكنا أن تطغى لولا أنها مؤطرة بالضوء. عنقٌ نِفِرتيتيٌّ الميل. وضعُ الجلوس مَلَكيّ. سِيَادِيّ، منه الأمرُ ولَهُ الطاعة.. هل أوْمَأَتْ ؟

اختفت عند المنحنى. من المستحيل اللحاق بها، هي راكبة وأنا راجل، تطلعتُ إلى الجهة التي قدمت منها، حدقتُ، أمعنتُ. لو أشرقتْ تلك الطلة، لو تكرّر هذا الظهور، يبدو أن انتظاري طال. أوْحَشَتِ الطرقاتُ، وأعْتَمَتْ الأركانُ.وَدَنَا شرطيٌّ مدججٌ، طلب أوراقي، أعاد الجواز الأخضر بعد تفحُّصِه وتطلعه إليَّ مرات، لم أعبأ. كان ثمة دفء كامن يتحول ببطء إلى لهب، هل بدأ معها؟ تذكرتُ النقاش القديم حول النار، أهي كامنةٌ في الحجر أم نتاجُ تفاعلات؟

نسيتُ حَذَري، خشيتي من المخاطر المجهولة التي أتوقعُها وأخشى وقوعها في المدن النائية، صرتُ إلى حال خبرتُه من قبلُ، لكنه لم يبلغ هذا العنفوانَ، لا القُعود ولا الوقوف ولا الرقاد جالبٌ للراحة، أثق أن توقُّفَهَا لحيظةً في مواجهتي، تطلُّعَهَا إليَّ يتضمَّنُ رسالةً، يحوي نبوءة.

ما مضمونها ؟

هذا ما أحاول أن أقفَ عليه، لم ألجأْ إلى عربة أجرة إلاَّ بعد منتصف الليل، في الفندق تجاهلتُ الأسئلة وأجهضتُ أي سعي للحوار، نزوعي إلى الانفراد أقوى من أي دافع آخر، في اليوم التالي جئتُ. رهبة الغسق تعكم قلبي، لم يكن مشروعُ إقامتي مجردَ فكرة، إنَّما وضعتُ الخطط قبل نومي، لم أدْرِ أنه سيتفق لي بعد حين غير بعيد، صباحَ اليوم التالي رتبتُ حاجاتي، سفري بعد الظهر، كنتُ أمشي كالمنفيّ مع أنني أعود إلى موطني. لم أكفَّ عن استعادتها في لحظات صفوي، ونوئي، عند إقلاعي، عند وصولي، في كل جمعٍ شاركته، لكنني لم أتوقع قط أن أستعيدها، أن يتجلىَّ لي بريقها الناعم، النفاذُ، القارئ. المقرئ. هناك حيث لا أتصور. ولهذا تفصيل أذكره ليس لغرابته، إذ عرفت أموراً عجيبة، وأخرى مثيرة للروع. لكن أدون ما عاينت لخروجه عن كافة ما عرفتُ، وسائرِ ما تمنيتْ.

جبرينية

رأيتها، انفردتُ بها وجرى بيني وبينها ترسُّل في عُمان، انفجر حضورها في استانبول وجرى التحقق في حصن "جبرين"، لكن.. قبل التطرق لابد من وصف حال عرفتُه، أعني تحقُّقَ ما نتوقع حيث لا يخطر لنا ببال، وربما كان الموت أجلى مثال. ذلك أنه يواتي بغتة، حتى مع تهيؤ الحال، مثل الحرب وسلسال المرض. لايمكن تعيين اللحظة التي يكتمل عندها ويحل، لا يرصده إلا صفوة من خلاصة القوم أوتوا قدرة على رصد دبيبه والمصالحة معه، ومن هؤلاء نُدْرَةٌ يمكنهم التنبؤ بدقة.

أما حالي فوعر، ذلك أني دائم المنازلة لمن لا يُدرك، لذلك طال صراعي مع نفسي، ليال ثقيلة الخطى تدب عليَّ. أتوقع اكتمالي، ألا تطلع عليَّ الشمس، غير أن ما أتوقعه لا يتحقق، لم أكفّ رغم يقيني غموض اللحظة، وجهلي بالمحتّم، يطول عنائي فيخيّل إليَّ أن احتضاري بدأ عند ميلادي!

مانرغبه، مانرهبه، يحل دائما حيث لا نتوقع. خرجتُ من الفندق ذلك الصباحَ الحارّ، مضيتُ بصحبة صديق حميم، أحمد الفلاحي نزيل مسقط، عرفته عند إقامته القاهرية التي امتدت سنواتٍ عديدة، نادرٌ لقاؤنا إلاّ أن الودّ موصول، وإذ نلتقي بعد غيبة سنين نستأنف حديثنا فكأنا لم نفترق إلاّ بالأمس.

مررنا بنزوى، توقفنا بأسواقها وحصنها. وتحسَّر صاحبي على نقص المياه في أفلاجها وموت كثير من النخيل، وتناقُص الخضرة. حُلْنا بقلعة الرديدة، توقفتُ مصغياً إلى الصمت داخل الأفنية الداخلية حيث اللانهائية مستَوْعَبة، والأسوار لا تلغي الإحساس بالخلاء الممتد، ثم.. بلغنا "جبرين". وعند دنونا أدركت أن ما مررنا به مجرد مراحل، مدارجِ وصول إلى هذا الحصنورديٍّ اللون، منذ

اقترانا بدأ عندي استنفار غير مبالَغٍ فيه. بيوتٌ قليلة متباعدة. متواضعة، النخيل غالبٌ والأشجار قليلة.

بعض الأماكن تمنحني الإحساس بالبداية، وأخرى تؤكد لي نهاية ما، هنا مفَتّحُ الخلاء الكوني، أُفُقٌ راسخٌ هادئ قريب، بعيد، وسطه ينبثق البناء من مسافة معينة يبدو دائرياً، مصمتاً، مع قطع مسافة باتجاهه يبدو مربعاً، ثم مستطيلاً، متصلاً ببعضه ومنفصلاً، إذا وقف المرء القادم من عمق المدى يراه كما يشاء، مستطيلاً أو دائرياً، جدرانٌ مصمتةٌ تماماً أو مرشوقَ الفتحات. بالنسبة لي جرى عندي توقع وتشوف.

باب صغير مؤدٍّ إلى الفناء التمهيدي، باجتيازه يتمّ العبور من حضور إلى حضور. من واقع إلى آخر مغاير، بل.. من كون إلى كون، بابٌ ضيقٌ، لا ينبئ أبدا بما يليه، لا يتيح الولوج للقامة المنتصبة، لابد من انحناء شديد، لعمق الصمت يمكن الإصغاء إلى صوته. هسيس يُرَى بالنظر.

سجنٌ إلى اليمين، عند الحافة، أول ما يقابل الداخل، وآخر ما يراه الخارج، فتحةٌ لا تتيح الدخول إلاّ للمنحني، مخزن التمر، تمتد داخله ألواح خشبية بينها فرجات تتيح للعسل أن يتدفق إلى أوانٍ خزفية، نرتقي درج سهل، محرضٍ على الصعود. علي الإيغال، عند مستوى مرتفع قليلاً حجراتُ النساء، تحتهن مباشرةً السجنُ، سقفُه أرضيةُ جناحهن، أرصدُ الرغباتِ المكمورةَ والفوراتِ المقموعة، والأحلام الكابيّة، أُحيلُ البصر مصغياً، أصغي إلى المتبقي لا أدري أي تعبيرات مرت، بدت. دعت صاحبي أحمد يتساءل :

"فيه شيء"

نفيت، عاد يستفسر :

"أنت متعب ؟ "

قلت : أبداً .. أبداً.

لكنه بدأ يتخلف عني، يتيح لي الانفراد، ولا يتكلم إلاّ نادراً، حتى أدركتُ بعد لحيظات أنني بمفردي، وأنه ينتظر في مكان ما، وأن اللقاء سيتم في النهاية، المسار محدد، صارم، مرتب.

ممر قصير، بداية سلم متعدد الدرجات، ضيق، زاوية ارتقائه مصممة بحيث لا يمكن رؤية آخره حتى مع الصعود، مستمر، ما من شيء يليه. هذا ما خيّلَ إليّ في الممر القصير، أيضاً في جناح النساء، يبدو أي جزء وكأنه الكل، لا يليه شيء.

قوس حجري يعلو السلم، وللأقواس عندي شأن، ولي في مواجهتها أمور. وللأقواس أمة في مسجد قرطبة الجامع، المنحنىَ عندي أقرب، إنه الأنسب والأدق تعبيراً عن المسيرة، فكل الخطوط، كل الطرق بها ميل، ولو أنها مستقيمة لما أدت إلى غاية، فلا يؤدي الطريق إلى آخر إلاّ إذا كان به ميل، الاستقامة وهم. لأن الكوكب دائري والكون أكرى.

أعلى القوس أبيات، أتوقف لأقرأها، ثم لأنسخها ..

نزلنا ها هُنا ثم ارتحلنا

كذا الدنيا نزولاً وارتحالاً

ظننا أن نقيمَ بها ولكنْ

مُقامُ المرءِ في الدنيا مُحالاً

٣١ محرم ١١٣٩ هجرية

ما يقرب من ثلاثة قرون. من أنشد الأبيات رحل، ومن كتبها مضى، ومن يقرأها الآن سيتبعهما.. اقرأ ما يلي الأولى.

ولا بد أن أسعى لأشرف رتبة

وأحجب عن عيني لذيذ قيامي

وأقتحمَ الأمر الجسيم بحيث أن

أرى الموت خلفي تارةً وأمامي

ينتهي الدرج إلى بسطة تليها زاوية، باب خجول متوارٍ، حجرة فسيحة، نقية الضوء، تبدو مصمتة، لكن بعد تدقيق أرى نوافذ وبابين، لا تظهر الفتحات إلاّ عند الحاجة إليها.

أتأكد مما وضعت يدي عليه، كل موضع يبدو كأنه الغاية، المحطة القصوى التي لا تليها أخرى، لكن.. عند لحظة معينة، موضع بعينه، ربما مع الحركة، مع النظرة، مع حلول خاطرة وافدة، مع بلوغ نفس معين إنْ شهيقاً أو زفيراً، ربما مع دفقة قلب. تُرَى.. كم دَقّة، كم خفقة منذ رجفة الأولى حتى رعشة الأخيرة، هل يمكن الإحصاء والتدقيق مع مراعاة التمهل والهروع خاصة عند تحقق العشق؟

مع توالي الأنفاس تظهر الانفراجة، تبدأ الصلة بالمرحلة التالية، هكذا يتقدم المكان مصحوباً بالزمن الخاص به. تولد الغرفة من سابقتها، يخرج الممر من الممر، ويلي الدرج شبيهه، هكذا يمكن الاستمرار إلى مالا نهاية، أو.. إلى حد معين يصعب التنبؤ به، بل إن بعض الأماكن توجد بمجرد التفكير فيها، وتختفي مع اضمحلال التصور، هكذا تتباين المساحات طبقاً للحالة النفسية التي يمر بها المرء. فإذا كان مغموماً وعنده شجى تتقارب الأسقف وتدنو الجدران. وبحلول الفرح وتفجر النشوة تتسع الصالات ويبدو بعضها أفسح من ميدان.

رغم فرحي وانبهاري باكتشاف الخاصية لكن قلقا بدأ يسري، أصبحت الآن أتوقع غرفاً أو قاعات تالية، هكذا يقوم ما تخيلتُ، ويمتد ما رغبتُ، فمتى المخرج؟

أين سألقى صاحبي أحمد الفلاحي ؟

لابد أن من سبقوني كان لديهم تصور محدد، مُسْبَق، يعرفون عدداً معيناً من الغرف والصالات والطوابق. أوصاف مدونة لا يستطيعون تجاوزها. لكن ما وقعت عليه، ما تأكدت منه لم يخبرْ عنه أحد.

أستعيد ملامح صاحبي، هل كان يعرف؟ هل اطّلع على ما بدأت أدركه منذ بلوغي أول الدرج؟ عندما بدأ يتراجع ليتركني أتقدم وحيداً، لماذا لم يطلعني إذن؟، دائما ينظر إليَّ حائراً، مستفسراً. حجمه الدقيق، نحوله الهادئ، لحيته وعيناه العميقتان، كيف لم أنتبه إلى طلته الماضية إلى بعيد، كيف لم أنتبه؟

أتمهل.. كم مضى عليَّ ؟

تنبئ الساعة حول معصمي أنني أمضيت ساعة أو ساعتين منذ ولوجي، لكن يمكن أن يكون ذلك اليوم أو أمس أو الشهر الماضي أو منذ عامين أو بعد سنوات!، للزمن إيقاع خاص. وإلاَّ لماذا أوقنُ أنني تقدمت في العمر مدى، وأنه دُفِعَ بي عّدةَ مراحلَ بعيداً عن لحظة ميلادي، حرى الكثير في الزمن القليل وهذا ما سيقع لي مرة أخرى في وضع أحلى وأوضح. أمضي بطيئاً مستوعباً ما يتكشف لي. خصائصُ وأحوالٌ لا تبدو إلاَّ لمن عنده التمكن واحتمالات القبول. من يحدد؟ من يفرق بين من يتفقد البناء فلا يدرك منه إلاَّ الجدران والقاعات والممرات والمنحنيات، وبين من ينشئ التكوين طبقاً لما يتراءى له. لما يَرِدُ على مخيلته؟

لا أعرف، وما من إجابة شافية عندي، أو لدى صحبي من أهل عُمان، الذين عرفتهم على البعد، أو أولئك الذين اقتربتُ منهم مثل صاحبيّ الفلاحي والرجي، عند مرحلة معينة تفتحت لي طيقان أربع، كل منها توازي جهة من الجهات الأصلية، من إحداها كان الإمام بلعرب يتطلع في لحظات معينة فيرى الضفاف كلها قبل حوالي أربعة قرون. يجتاز الواحة المحيطة ببصره. والمرتفعات النائية أو الدانية، يبلغ ضفاف الأفلاج والأنهار الجارية والبحيرات الشاسعة والمحيطات الخضمّ، الضفاف الفاصلة بين اليابسة والماء، بين المحدود واللانهائي، بين المدرك المعاين وما لا يمكن بلوغه. إنها الفوارق!، أدقق حتى أدرك مسارات كل تَطَلُّع تمّ عبر تلك الطاقة. بل وألم بالانعكاس الواقع على الحدقتين. أصغي إلى أصداء شهيق وزفير لعابرين قدامى. أبلغ قاعة النجوى. مستطيلة، ممتدة، لا يتم الجلوس فيها إلا لفرد، بشرط أن يصمت، أن يتأمل، أن يطرق متأملاً، مدبراً فحص الأحوال، فإذا خرج عن هذا الحال اختفت.

القاعة التالية للمفاوضة. كان الإمام بلعرب بن سلطان اليَعْرُبي يجتمع فيها بمن جاء لمشاورته، أو نصحه، أو مفاوضته، لا يكون بمفرده رغم أنه يبدو للقادم، الغريب وحيداً، ذلك أن الحجرة محاطة بخندق يكمن فيه حراس أشداء مدربون على الظهور المفاجئ عبر الأبواب المتحركة المخفاة بأبسطة فارسية. يظهرون عند سماع صوت معين فلا يقدر على ردهم أحد.

مكثتُ وقتاً غير محدود في قاعة النجوى، لا أظن أنني بلغتُ مكاناً في شتى مرات ترحالي يجسد الإحساس بالعزلة كما أدركتُ في تلك القاعة بعداً قصيّاً، ونأيا موغلاً، لم أعرف هذا التوحد بالصمت حتى في أيام سجني بزنزانة القلعة المعزولة، هنا تنبتُ كافة الصلات. حتى لتكف الصور عن التدفق إلى الذاكرة، يتلاشى كل صدى.

دخول من باب، ودخول يليه، ما من خروج، لا يتشابه ارتفاع بآخر، كلّ موضع طابَقٌ بمفرده حتى وإن كان موازياً، كل غرفةٍ أو ممر أو موضع ذو قياسات وزوايا مغايرة. كأنه غير متصل بما يليه مع أن الجدار واحد في أحيان كثيرة.

لا أعرف كيف وصلتُ إلى قاعة الشمس والقمر، المؤكد أنها لا تلي غرفة النجوى. عبرتُ قاعات متتالية لابد من المرور بها بسرعة، أحياناً.. يجب الركض، ولكثرتها من الصعب استعارتها أو استرجاع تفاصيلها. عند الوصول لا يمكن للداخل إلاّ التطلع تجاه النوافذ الطولية، المزخرفة، الزجاج الملون المحيط بها المعشق في الجبس ناصع البياض. تتوزع على مجموعتين، كل منها تضم سبعاً، متصلة، منفصلة.

سبع نوافذ للشمس

سبع نوافذ للقمر

ضوء الشمس الأصفر بكل درجاته لا يتخلل نوافذ القمر. ضوء القمر الأزرق لا يعبر فتحات الشمس، أما هسيس النجوم فينفذ منها كلها، يتركز في ليالي غياب القمر حتى ليمكن قراءة كتاب دقيق الحروف.. هكذا جرى التصميم. وهكذا شاء المصمم، لكن .. هذا ليس كل شيء. إذ وَضُحَ الأمرُ بحيث تكتشف السماء من كل نافذة عن بعض مكنونها، فمن النافذة الأولى – شمسية أو قمرية – يمكن رؤية الأبراج كلها. ومن الثانية تبدو مجرة درب التبانة بما تحوي، ومن الثالثة تلوح كوكبة الفرس كأنها في متناول اليد، ومن الرابعة يمكن بعد تدرب وصيانة رؤية الأكوان الموازية..

في كل لحظة يتبدل الضوء ويتغير، من هنا تلوح درجات يصعب حصرها لكلٍّ من الأزرق والأصفر، أما دخول الشمس فيتم بهدوء خافت، لا تبعث قيظاً، ولا تنبئ بحرارة، يكون الفرق شاسعاً بين ماهي عليه في الخلاء

الصحراوي المحيط، والفراغ الرطب، العفيف، اللطيف، المضموم، لا تت
الحرارة ولا تتبدل إنْ صيفاً أو شتاءً.

استعدت وقفة صاحبي الفلاحي. رعدةٌ سرتْ عندي.. بقدر ما فيه
رقة، بقدر ما تحوي من غموض. هل توقع أمراً؟

يغمرني الأصفر بصحبة الأزرق، يتدفق ليحتويني، عند درجة معينة، ملامحها موزعة على نوافذ الشمس، نوافذ القمر، كَوْنيّة الطلع إذن، تلك لا تمت إلا لمن أخضعتني لها عند السوق المغطى في مدينة استانبول. "جـ هناك. السوق المغطى هنا.. لافرق، تتضامّ الأمكنة عندي بعد ظهورها بين النوافذ الأربعة عشر، مصوغة من لونين لاغير، تماماً كما طالعتُها أوّ دانياً من مشوقية قوامها، وأنوثية فيضها عبر الخلاء السحيق، لاغياً كل طاويا كافة ما عرفت..

سَعِيرُها

إذا قُدِّرَ لي قياس الوقت الذي استغرقه بصري في التطلع والرنو.. ثم المقارنة، سيكون الزمن الأطول من نصيب البحر وتلك الأنثى الفواحة الطبلاوي بالقاهرة المعزية، أثرى الله أيامها وأصلح أحوالها.

كنا نقطن الطابق الأول بعد الأرضي في بناية حديثة نسبياً بالقياس إ بيوت الحارة المشيّد معظمها في نهاية القرن الماضي ومفتتح الحالي. تُعرف البيوت بأصحابها أو أشهر من أقاموا بها. اشتُهر منزلنا باسم وكيلة مالك اسمها "أم كوثر". متوسطة الطول. ممتلئة، هادئة الصوت، تجيء أول كل لتجمع الإيجار وترسله إلى صاحبة البيت المقيمة في بني سويف ولم يرها

وقيل إنها مقعدة لا تقدر على الحركة. أما "أم كوثر" فتقيم في حارة "بيرجوان" المتفرعة من شارع "المُعز" والتي سكنها مؤرخ المدينة الشهير "تقي الدين المقريزي" قبل حوالي ستة قرون. لسبب مالا أطّلع عليه الآن صحبتُ أبي عصراً لزيارتها. كانت واجهة المنزل الذي تقيم به بيضاء تتخللها نوافذ خضراء.

يُعرف البيت باسمها حتى الآن رغم رحيلها وبيع البيت إلى ملاك آخرين، يواجهه بيت الباجوري، من طوب أحمر، بوابته من حديد أخضر، لا يفصله عنا سوى عرض الحارة، حوالي خمسة أمتار، مسافة يمكن عبرها سماع الحوار الدائر في الناحية الأخرى بصوت عادي، في الليل يمكن الإصغاء إلى أنات النائمين وهمهماتهم، إلى وقع الخطى وتدفق الماء من الصنابير عند الشروع في الوضوء أو الاستحمام!

أربعة طوابق ..

الأول الأرضي، الخالي من الشرفات تقطن عائلة "أبو فريدة"..

الطوابق الثلاثة الأخرى يقيم بها أشقاء ثلاثة، ذكران هما حسن – مسحراتي الحارة، ومحمد، وأنثى هي عائشة، الأرملة، المقيمة مع أربعة: بنتين، وابنين أحدهما موظف بالمطابع الأميرية.

شقتنا تشرف على "أبو فريدة"، امرأته – أم فريدة – شابة، جميلة، عَفِيّة، فتية، متمكنة، لافتة، تبدو أصغر سناً من زوجها الذي يعمل بمصلحة البريد، كنت أتطلع إليها عبر فرجات النافذة الخشبية أراها ولا تراني، أو.. هكذا خيّل إليّ، إذ لمحتها مرات تنظر تجاهي وتضحك إما بصوت مرتفع، أو بهدوء ماكر، كأنها تعرف وتبلغني علمها بوقفتي، تحرك مؤخرتها المتأججة.

اعتدتها، في وقت معلوم، عصر كل يوم، مابعد الخامسة، تفتح النافذة، تشرف على الدرب، تمكث طويلاً، إلى ما بعد الغروب، رغم محدودية المارة،

ظهور الغرباء نادر، الحارة سد، لا تؤدي إلى مكان آخر، حتى الباعة المتجولون مألوفون، معروفون، بدءًا من محمد بائع الصحف إلى مصطفى الذي يظهر قبل الغروب، وراءه حَمَلُه المحمَّل بالذرة المشوي، بجرد التطلع عبر النافذة يتيح الفرجة، ويعني التوق، ويسمح بتبادل تحيّة مع جارة أو حوار عابر، وعرض صامت متدفق لذلك الجسد الذي يرسل أصداءه بعد أكثر من ثلاثين عاماً فيشعل ويحرض. النافذة ذاتها هدف، تلك الفتحة المربعة أو المستطيلة دائماً واعدة حتى وإن كانت لا تؤدي إلى شيء.

سرير منخفض عريض، أرقبها بَدءًا من صعودها فوقه، تقدمها على أربع، اتكائها بمرفقيها على حافة النافذة، هكذا يكتمل حضور خصرها النحيل وردفيها الرابيين، المجوهرين، يغوص الجلباب الرهيف بين شطريهما فيسفر ويشي، أما صدرها الناهض الأشم فيستريح إلى قاعدة النافذة، لمتانته وفيضه، تبدو كأنه تختمي به، تقف خلفه، يتوزع ثراء معمارها على تكوينات عديدة، أدركها في مجملها وليس في تفصيلها، رعدتي المصاحبة لظهورها لم تتكرر عندي قط، لم تترها أي أنثى رأيتها فيما تلي ذلك على البعد أو القرب. لكم توهمتها، لكنها لم تتفق لي. ولولة شهوية، تندلع بمجرد فتح النافذة وظهورها، يعني ذلك اتقاد البؤرة، ودنوي من سعير لا يهدأ. شيئاً فشيئاً توطدتْ الصلة بين جسدي وجسدها رغم استحالة التماسّ وانتفاء اللقاء، ومحو التساؤل والمجاورة.

هويْتُها. صرت إلى فلكها، أُغْلِقُ باب الحجرة الضيقة، تتسع لسرير وصوان ومنضدة صغيرة أرصّ فوقها كتبي، أقول لأمي: إنني ماضٍ إلى إغفاءة حتى يمكنني السهَر ليلاً، على مهل أمضي إلى مرصد اطلاعي، لم تُخلِفْ ظهورها قط. في توقيتها المعلوم تبدو، تمررني بمراحل أتقنتها، منها الترقب، والتوقع، والتهلل، والمقاربة والتمعن، والتوقد، ثم .. المدد.

أوعرها الترقب، ما قبل ظهورها، ما يسبق صرير المصراعين عند انفراجهما، أمتعها استنفاري لالتقاط الأوضاع العابرة، مثل حركة جسدها عند تهيُّئها، تأودها، ميل قوامها.

لا يصلني بها النظر فحسب، إنما شتى الحواس، رائحتها، عطرها، عبقها الخاص يلتقطه أنفي بالبصّ، دنوتُ منها مرتين، الأولى في الطريق عند إبحارها عبره ملفوفة في الملاءة السوداء الطرية الحباكة، والثانية عندما زارتنا وقعدت بجوار أمي، وصافحتها مرحباً بعينيها المكحولتين، تمكنت من عطرها، واحتفظتُ به سنوات طويلة، واستعدتُه في أماكن قصية، واقتفيتُهُ عبر أخريات لعل وعسى، وكلما وردت صورتها عليَّ غمرتني نسائمه، إشهارها أنوثتها، فيتجدد توقي كأني أطالعها أول مرة، حركة يسيرة من ريانة قوامها، من حضورها العسلي، تقلقلني، أما مفرق نهديها ومنحنى كتفيها فيثيران ذهولي، ويبلغان بحيرتي المدى، وقد أبلغ مرتبة الحظوة، أو أهوى متسولاً في عين اللحظة التي أحتويهما بالنظر.. صرنا إلى توافق عبر المسافة، تتحرك فأتململ، تبرز عجيزتها فأسعى إلى الإحاطة. كنت دائماً في موقع رد الفعل لما تقدم عليه من تحركات يسيرة، محسوبة، حتى وقعت المباغتة عصرَ ذلك اليوم الذي أطلّتْ فيه مبكرة قليلاً، ذلك أنني اعتدت طوال شخوصي مناجاتَها بألفاظٍ رقاق، وكلمات لا تنطق إلاّ في لحظات الانفراد وفقدان الزمام، فيما بعد حرصتُ على تدوين ما يُلفَظُ أو ما أصغي إليه. ليس في لحظة نطقه فهذا محال، لكن.. بعد انقضاء المتعة وفض الاندماج.

كنت أناجيها، ألاغيها، أصفها، أحكي لها ما يتردد عندي. خطر لي ذلك العصر أن أطلب منها اتخاذ وضع يخرجني عن مداري، إذ تميل لتتبع ثقل ثدييها، مبرزة تقبب استداراتها..

تجمدت شاخصاً، ذاهلاً، كما تثبت ألسنة اللهب لحظة شبوبها قبل تدافعها يميناً ويساراً، فوجئت بها تُلبي، متقنة الحضّ والترغيب، في البداية ظننت الأمر صدفة، عندما نطقت رغبتي في جلوسها قعدت، وعندما رددت بدون نطق لهفتي على رؤية مقدمة ركبتيها الريانتين راحت تحسر الثوب!

لم أنطق بحال إلاّ واتخذته، ولم تَجُلْ بي رغبة إلاّ ولبتْها. هكذا.. ترسَّخَ عندي منها اعتيادي على البعد، حتى انتفى عندي القرب. أو صوتٌ أتذرى عند تحققهِ بحثاً عن بُعْدٍ مغاير، خاصة بعد أن تماديتُ معها فأطلعتني على ما أشعل عندي جذوة نادرة.

حتى وقوع ذلك كنت قانعاً بما تيسر، عاشقاً لما تسفر عنه، راضياً بالمُتَاح، فَرِحاً بطلاّتها الحذرة نحوي، إدراكِها أنني أرقب وأتمنى وأرغب وأفعل بلا فِعْل!

إلى أنْ أقدمتُ فطلبتُ التجرد، مَدَّتْ ذراعيها، جذبت مصراعَيْ النافذة قليلاً. ما تبقى من انفراحة يتيح لي الطلة والتمعن. تراجعتْ بتؤدة وعيناها إليَّ، أدركني ملمس نظراتها، أزاحت الحمالة اليسرى، ثم اليمنى، بدا نهداها رائعيْ الاستدارة، شديديْ التطلع. لهما وقفتهما الشماء، انحسر الثوب فبدا محل التكوين وصوان الحياة، عمارتها صاعدة وأساسها مدكوكا. راسخاً

صرت إليها وعندي دفء بدأ تصاعده بلا تراجع، حتى اكتمل شبوبه فصرت أتنفس لهباً. ولم يكن ثمة بديل لإيقافه أو الحدّ منه إلاّ التجرد تماماً مثلها وتجاوز كل عقبة. وعبور الفراغ، وطلب النجدة..

مُورِيلِيَّة

ما بين ذلك العصر الذي تنفست فيه لهباً، وبين اندلاع تلك الشواظ مرة ثانية واحد وثلاثين عاماً. وأكثر من عشرين ألف كيلو متراً، في الاحتراق الأول تذريتُ وتناثرتُ لهباً، وفي الثاني تلملمت وبعثت..

عند كموني وتطلعي في درب الطبلاوي جرى الرحيل بالمخيلة، بتوالي الأحلام والرؤى. إلى أين؟ لم أكن أعلم وقتئذ. متى وكيف؟ ، كنت خلواً من الخطة، لكنني متوثب، متأهب للانتقال.

وقتئذ لم أسمع بمدينة موريليا، لم يجل بخاطري بلوغ المكسيك، ربما تردَّد البلد عندي من خلال فيلم شاهدته في سينما الكواكب بالدراسة عن زاباتا زعيم الثورة.

بعد ما يقرب من ثلاثة عقود وصلتُ إليها بعد سفر دام يومين تقريباً بالطائرة ثم بالسيارة من العاصمة إلى المدينة التي تقع وسط البلاد، للطريق المؤدي خصوصية لم يكن صعباً رصدها، خاصة أنني في بلاد نائية قد لا أبلغها مرة أخرى.

لحظة دخولي ساحة الفندق العتيق دُهِشْتُ وارتحت، أما الدهشة فلرؤيتي تلك الأقواس الحجرية، والحديقة الداخلية، وتنوعات الضوء، تماماً مثل المسافرخانة، وبيت السحيمي. أو منزل جمال الدين الذهبي، عناصر مشرقية جاءت مع الأسبان الأندلسيين. يفنى الوجود، تختفي الألسنة، تتبدل اللغات. لكن تبقى عناصر العمارة.. آخر ما يَفْنى ويتبدل، صرت مؤتنساً بالأقواس، بالحنيات، المقرنصات والحجرات ذات القباب.

يبعد المركز الثقافي حيث تعقد الاجتماعات سبع دقائق مشياً، استفسرت من زملاء المناسبة والمرافقين عن ظروف المدينة، وإمكانية التجوال ليلاً، نصحت بالحذر بعد الغروب، ليس بسبب اللصوص فقط. إنما لنشاط بعض الجماعات الثورية المعارضة، ذاتَ صباح استيقظتُ على أصوات حادة عبر مكبر صوت يدوي. كلمة "ثورة" بالإسبانية تُنطق منغّمة، ممدودة، حازمة، وكلمة "سلفادور". فارقتُ فراشي. فتحتُ النافذةَ حذراً، بلاطات الطريق حجرية وجزء من الرصيف المقابل. مرقت عربة جيب بسرعة، يقف إلى جانب السائق شاب يرتدي ملابس شبه عسكرية، يلوح بيده مهدداً.

ما بين استيقاظي ورؤيتها أربع ساعات وعشرون دقيقة.

بعد وصولي إلى القاعة وبدء إصغائي إلى الترجمة الفورية لحديث كاتب فنزويلي رصدتْ حواسي حضورها، عطرها نفاذ. يمت إلى عبير أم فريدة القديم المتشح بالعصاري، رائحةُ مصدرها الكينونة، الملامحُ، طريقةُ الحديثْ، سبيل الايماءة، ليس الشعر وحده، مابين الإبطين، أو الفخذين، ليست المسام أو امتصاص الملابس الداخلية لما يصدر عن الجسد مرمريّ التكوين.

تطلعتُ متجاسراً. خارج دياري أصير إلى جرأة أشد. الحياء أمر جُبِلْتُ عليه وكان له عندي آثار شتى ربما أُفِيضُ في وصفها يوماً، لكنني عند السفرَ أُقْدِم على الفور، بل أسعى وأختلق الفرص. ربما لخروج عن دائرة مؤطرة. وأعراف غير مرئية، وأمور فاعلة لقنتها منذ صغري واستقرت عندي، تؤثر في محيطها الأول.

حدقت لأستوعب.

قعدتها مَهْرَوية. لدماغها شمخة، ولنظراتها زهوة المقدمة. تعلن عن مواجهة لا تنتهي مع مجهول لا أراه. صريحة الطلاوة.

تجاوزت المنصة والترجمة الفورية والحاضرين من أقطار شتى. صرت إليها، وعندما تلقتْ قدراً غير يسير مني التفتتْ فلم أنسحب، أودعتُ خلاصتي في نظراتي، توقي وسائر نزوعي، وحنيني المتصل إلى التمام، ابتسمت فحاوبتني، وَقَعَ الاتفاقُ، أيقنتُ، تأهبتُ فالمقام عابر والوقت المتاح قصير، في مثل هذه الأحوال يصير الزمن إلى إيقاع آخر وتقييم مغاير، هذا أمر خبرته. ما إن ارتفع تصفيق الحاضرين حتى أشهرت آلة التصوير. مستأذناً. أشارت :

"ليس هنا .. ليس هنا .. "

في الطريق إلى خارج القاعة، قالت إنها أصغتْ باهتمام إلى ما تحدثتُ عنه مساء أمس، إنها طالبة دراسات عليا والتاريخ تخصصها، أصغيتُ مبدياً التجاوب وذهول يدركني لذلك التماثل العجيب بين الجسدين الأثمين رغم الفارق والمدة، وقت تطلعي عبر النافذة الموصدة وتشييعي شواظ شبقي إلى أم فريدة، لم تكن "أدريانا" هذه وُلدتْ بعد، لكنها تحوي ذات القدرة على تطقيق اللهب الأوار عندي.

قالت إن هذا المبنى قديم. كان مقراً لإقامة الرهبان في القرن السادس عشر. في القرن الماضي تحول إلى سجن لفترة من الزمن ثم هُجر وتهدمتْ بعض أجزائه، واستخدمه البعض مخزناً لقصب السكر، لكن في السنوات الأخيرة تم ترميمه وتجهيزه، وتحول إلى مركز ثقافي.

لم يغب عني حرفٌ مما نطقت به، لكن داخلي كان يتمرجل، بدت صاحبتها صامتة، لا أحتفظ بأي ملمح منها، لكنني أذكر توقفها عند بداية ممر طويل تحفه أقواس مؤدية إلى غرف صغيرة معتمة. قالت بضع كلمات بالأسبانية، أومأت ثم انصرفت، انفردنا.

تقدمتني إلى سلم حجري، حلزوني. ضاق الحيز فَقَوِيَ عليَّ عطرها، نفاذ، صمغي، سكّري، خطوط واستدارات أم فريدة، أنشبتُ نظراتي في تأود

ردفيها. وتموج نسيمها. انتهينا إلى سطح مرتفع عن سائر البيوت المحيطة، مبلط بالحجر، كاشف غير مكشوف، بالنسبة لي تركز العالم كله في الحيز الضام لنا، راحت تشير إلى هنا، وإلى هناك، لكنها كانت تقيم عرضاً وترسخ عهداً، استدارتْ فجأة..

واجهتني باكتمالها، بالحواس المستنفرة. ضاقت عيناها، صار الخطاب بالضمت.

" أفهمك.. وأعرف "

شيئا فشيئا أصبح لها ولي مكان وزمان لا تنطبق عليهما القوانين المنظمة لدورات الأفلاك، ليس مهماً أنني في مصر أو المكسيك، في الجمالية أو موريليا، تحت الأرض أو فوقها، غابت ملامح القوم الذين نزلت بينهم. اسم الفندق القديم، والعربة الواقفة بلا خيول أو ركاب.

كم استغرق تحديق كل منا إلى الآخر ؟

لا يمكن التحديد، كان عليَّ مواجهة اقتحامها المستمر، عيناها مركز، بقدر ما تبث من جرأة، بقدر ما تفيض بالشجن، لم تقلْ حرفاً، كأن الكلمات ترتد إلى داخلها بتأثير جذب هائل لا يمكن مقاومته.

تراجعت برأسها مبرزة صدرها النافر المستنفر. كأنها على وشك الخطوة الأولى في مشروع تعيد به الأمور إلى أصولها، المواد إلى عناصرها الأولى، تقدمتُ خطوة.. دفعتني في صدري.

قوية، أودعتْ عندي أثراً، بقدر ما فيها من حدّ، بقدر ما تحوي من استفسار وحضّ ودعوة، ظاهرها الهجوم وفحواها التلبية، تراجعتُ.. تقدمتْ هي، دفعتني مرة أخرى. مرة ثالثة. إما الردّ أو التواري، غير أنني كنتُ أصغي

إلى ذلك الشواظ القديم والذي ظننتُ انطفاءه إلى الأبد، كان يشتدّ مستدعياً كل لحظات التوق التي مرتْ بي.

أشهرت إصبعي، دفعت به إلى صدرها، آهة ألمها، توجُّعٌ هذا أم لذة؟ شدت شعري. أمسكتُ بمعصمها. ثنيتُه، دارت مضطرة منحنية لتسلمني بتكوينها إلى الذهول الأتمّ والهذيان البعيد. اضطرم اللهب الذي دفعني إلى الفراغ ذلك العصرَ البعيدَ وكان حدّاً أنهى طلاتي على جارتي الفياضة، لم أعبأ بشيء، البعد يشجعني. وقصر الوقت المتاح يدفعني، ودفئها يحيلني إلى عناصري الأولى، أما عتاقة المكان فتضفي قدراً من الإقدام والغواية لم أعرفهما من قبل.

مدوية عاصفتها، تسعى إلى الاتحاد بالانفصال، تبغي الامتزاج بالتنافر، المتني أظافرها وأوجعني خدشها، لكنها لم تقدر على التخلص من الوضع الذي دفعتها إليه، وعندما أسفر جسدها عن جِنيّةٍ، رأيت ما تدليت من أجله يوماً، هكذا جرى انبتاتي عن سائر لحظاتي. تركز حضوري كله منذ تخلقي جنيناً إلى تلك اللحظة إلى ما لم أعرفْه بعد، تركز في دفعي مداري للاتحاد بمداري. في اكتمال تكوكبي بها، وتطلعي إلى اتساقها، وحلاوة مصادرها. تضامت سائر المسافات، واقترنتْ الجهات واللحظات الماضية بالآنية وأصغيت إلى أصوات قادمة من بعيد كانت واهية من قبل. ونفذتُ إلى أسرار لغات شتى بدون ترجمان، ألغيت تحفظاتي كلها. وبددت محاذيري كافة، صارتْ مقصدي وعطرها هويتي، وصرختها عند بلوغ أوج متعتها ذروة تحققي، شقت الفراغ الضامّ لبيوت المدينة وسرت إلى الجبال القريبة. وإلى أيامي الأولى، تلك العصاري. عندئذ أفْلَتُّ من كل مدار. صرت إلى خلق آخر..

بلوغ الأسباب..

يبدأ سعيي حين أظن وصولي إلى نهاية مطافي، عندما أشارف اليقين باكتمال الخطى تبدأ الرحلة غير المتوقعة في سياق الظن. بعد احتيازى الخمسين صرتُ أتعلق بالعصاري ومشارف الغُروبات، حلَت بي رؤية وداعية، فكم من كتب أنظر إليها مستقرة فوق أرفف مكتبتي، أعرف أنني لن أطلع عليها، ما يعبر بدائرة بصري أقتفيه، كأنه نهاية ما أتلقاه من صور.

يختلف الوضع عما كنت عليه أول زمني، عندما كان الحال الغالب عليّ شروقياً، آمالي متوالية وتطلعاتي مسفرة، لكم حلمت وتمنيت الرحيل، وعندما بدأت أسفاري صرت أشرق وأغرب خلالها، إذا وصلتُ أفقاً مددتُ البصر إلى ما وراءه، وإذا بلغت مرسى تهيأتُ للحظة إقلاعي منه. ثم بدأ توقعي لإقلاع غامض. مجهول الغاية، لا يسمح المجال بتقصي الأحوال. إنها بلا حصر. لكنني أقول إن أمري أصبح كابياً، غامقاً.

ذكرتُ في تدوين سابق هيامي بالموسيقى التركية. والغناء الشجي لأهل تلك الديار، تجد المقامات سبلها إلى روحي فتثير وتُقلب، إلاّ أن المعاني في تجريداتها المنطوقة كانت تستقر عندي.

حدث بعد رحلتي التي أشرقتْ عليّ فيها منبعُ اللونين، الأصفر والأزرق، التي طلعتْ عليّ في جبرين وجرى لي بسببها ما جرى. حدث أن أهداني صاحب حميم شريطاً لحفل موسيقيّ بعد عودته من "قونية" وزيارته ضريح مولانا جلال الدين.

جوق من رجال ونساء، يقفون في صفوف ثلاثة متتالية، عازفون يجلسون إلى آلات أعرف بعضها وأجهل الآخر. قائد الفريق عجوز، مهيب، أشيب

الشعر، يشير بيديه مباشرة. بما يمنعني كثيراً متابعة الصلة بين أصابعه ومسارات النغم.

تستعرض آلة التصوير الملامح على مهل، أصابع العازفين، جمهور المستمعين، ما أجمل أن أسمع وأرى وأدقق، ما هذا؟!

هي ..

باختصار دال، مكثف.. هي.

آلة التصوير لا تتوقف عندها، إنما تتمهل أمامها، تمتشق الهيبة، لوقفتها شمخة تمتزج بنعومة فيضها الأنوثي، انضباط قوامها، شروع ملامحها، بجمع لأمكنة عرفتها، ولحظات مررت بها، ونواصي حنين توقفتُ عندها، وأزهار لا يمكن نسبتها إلى فصيل. حاوية، متناهية، مفرداتها مقتطفة من سائر تموجات الجمال، وتدرجات الجلال.

صرت إليها موقناً إن وضعي تقلقل. ذلك أن ما تعلقت به صورة، علامة على وجود، وليس الوجود عينه، أعدت الكرة مراراً. أوقفت الشريط عندها. أبطأت دورانه. أسرعت منه، اقترب، أبتعد إلى الخلف، أتوقف عند مسافات مختلفة، أما النغم الذي تشارك في إنشاءه فامتزج بي، لا أقول حفظته، إنما انتهى إليَّ، صار يصدر عني، أتقلب على مقاماته، وأخطو على ايقاعاته. أنام وأصحو على إنشاده، أقوم في أوقات مختلفة من الليل. لأدير الشريط.

من ؟

أين الآن .. بالضبط في هذه اللحظة ؟

ماذا تفعل ؟

لا أعرف عنها إلا صورتها ضمن المجموع. حضورها الذي استعدته مرات، كتمت أمري عن صحبي الأقربين لغرابته، إلى أن بلغت الحد الباعث، المحفز، ذلك أنني قررت أن أبلغها.. يكفي ما ضيعتُ، هذه الإخفاقات المتتالية التي تثقلني.

لكن .. كيف ؟

كيف وأنا لا أعرف اسمها. ولا عنوانها. ولا لسانها. محيطات أكيدة. إلاّ أن ما بدأ عندي أقوى. أمضيت جل عمري في التعلق بخيالات شتى وأنفقت في استدعاء الصور وتمثل الرؤى أكثر من اتصالي بالمحسوس ودرايتي به، الوقت المتاح بالتأكيد أقصر من المفقود. إذن.. فلأشرعْ. أن أعبر الموانع أيا كانت، ربما أجمع بعضا مما تذرى مني، أن أعيش تلك الوثبة بعد توهمي عجزي عنها وكلالي، وبقدر ما يعصف بداخلي من هوجات بقدر ما بديت لكل ذي قربى هادئاً. راسخاً. ثابت الظل بعد تباطؤ خطوي، وطول إطراقي، وشدة إمعاني.

بتأنٍّ رحتُ أنهي بعض العلائق وأجمد أخرى، وأصفي ما أقدر عليه، قلبتُ كافة المُمكنات التي لا تساعدني على السفر إلى استانبول مرة أخرى، أقصر الإقامة فيها مستوراً، آمناً حتى أصل إليها ويخاطب لسانها لساني.

لعلي أبلغ الأسباب.

طرقتُ الأبواب كافة، طلبتُ المساعدة من أصحاب قدامى لدى بعضهم صلات بمنشآت ذات علاقة بتركيا. لكنني لم أصل إلى شيء، إلى أن تلقيت جوابا على رسالة كتبتها إلى عزيز عرفته زمن الستينيات في منتديات القاهرة الثقافية. خاصة في الطابق الخامس من البناية رقم سبعة وعشرين بشارع عبد الخالق ثروت. والتي كان الراحل يحيى حقي يتخذ من إحدى غرفها مكتباً يلتقي فيه بمريديه وصحبه. يُصغي إليهم ويُبدي حُنواً ورعاية لمن هم في البداية، بصبر وطول بال وقدرة على توصيل الفائدة بغير تقتير.

في مكتبه لقيت "أكمل أوغلو"، توثقت علاقتي به، إلى أن رحل من مصر إلى بلد أجداده، وأنه انتهى إلى إدارة مركز علمي للدراسات والفنون الإسلامية، وجرت بيني وبينه مراسلات على مدد متباعدة، وكان ممن طرقت عتباتهم.

أبدى ترحيباً، دعاني إلى القدوم. أما الحديث عن أي أمور أخرى فمؤجل حتى اللقاء، هكذا أقلعت صوبها، وعندما رحب "أكمل" بي، وصحبني إلى مطعم يطل على البوسفور. منه يمكن رؤية مدخل مسجد رقيق التكوين، منمنم المواشي، حزين الحضور، ينبعث منه صوت مؤذن مُلتاع، مُصوب مباشرة إلى سائر الفضاءات العُلى.

لم أُخْفِ عن صاحبي أمري. بسطتُه مباشرة، قلت إنني خرجتُ من موطن أهلي. وموطن صحبي. وحِدتُ عن تراث أيامي بسبب صورة لشابة أجهلها. غير أنني عاقد عزمي على الوصول إليها، وليس قدومي إلاّ الخطوة الأولى تجاهها. لم أصحب في حقيبتي إلا بعضاً مما يستر أيامي الأول، ومن مكتبتي التي أنفقت جوهر عمري ومالي في جمعها، صحبت أربعة كتب لاغير اعتدت أن تكون معي أينما توجهت . القرآن الكريم، وألف ليلة وليلة، وديوان الحماسة لأبي تمام. ونهج البلاغة لسيدنا ومولانا علي ابن أبي طالب. هذا حسبي.

لا أعرف ماذا يمكن أن يقع لي غداً، غير أنني مقدم، باذل للجهد، غير وجل لعلي أجد فيها منتهاي، إذا وَفّقتُ أكون بلغتُ وتحققتُ، إذا تعثرتُ يكفيني الإقدام وتجنبي ما عرفته من ندم.

تعجب صاحبي غير أنه تعاطف وتفّهم، قال: لا يغير مصيرَ إنسانٍ إلاّ امرأةٌ لكنك تتبع صورة.

قلت : إنما أخرجُ مني إليّ.

قال مبتسماً : ها أنت بعد بلوغك الخمسين يمكن أن تصير تركيّاً !

ارتعدت. كأنني أدرك ذلك للمرة الأولى، كدت أنطق بالنفي الموثق، المؤكد، لكنني صمتُّ، لم أقل : إنّ دارَ مولدها وإقامتها لا تعنيني، ليست القصد، إنما أسعى إليها لو هي هنا أو هناك، صينية، هندية، روسية، إفريقية، كردية، جركسية. كردية أو من بنات المايا، شرقية أو غربية، جنوبية أو فوقية، تحتية، أرضية، أثيرية، قديمة أو.. محدثة، ما يعنيني "هي". الصورة تمت إلى زمني، إلى وقت يحتوينا معاً، في كوكب يرحل بنا عبر المجرة، كيف لا أسعى وهي جارتي في الوقت أما المكان فحيث أخطو.. كيف ؟ كأن صاحبي أدرك عني. أطرق ثم اقترح عليَّ الالتحاق بعمل مؤقت يحتاجني فيه، ويكون نواة مرتكزي، يتمثل في إشرافي على الطبعة العربية من النشرة الشهرية التي يصدرها المركز.

لم يكن أمامي خيار، كنت أسعى هادئاً، ثابت الخطى كأني ولدت ودرجت وعشتُ هنا، لا أسفر عن أي اغتراب، إلاّ أن لُبَّ جذعي كان قلقاً، فعالاً.

رتبتُ لحضور دروس عملية لإتقان اللغة، أقمتُ في فندق صغير يقع عند نهاية طريق منحدر، رتب لي "حقي بك" اتفاقاً ميسوراً مع صاحبه، ويومياً نمضي معاً إلى المدينة العتيقة الرمادية الطلع. غروبية الملتقى.

يعيش حقي بك في هذا المنزل منذ عشرين سنة. تجاوز الثمانين. خبير بفن الخط، وله أعمال في المتحف والمعارض ذاع صيتها، يشرف على صيانة الخطوط المنقوشة في حجر القباب والمداخل والحنيات وحول حضور المآذن. مُلّم بمخطوطات مكتبة السليمانية، هدفه.. إيجاد مخطوط قديم لتائية ابن الفارض بخطه، يحفظها، يرددها بالعربية الفصحى الناصعة المشوبة بلكنة أعجمية، يعرف

المدينة القديمة كما أعرف الجمالية. له عند كل ناصية وقفة، وأمام كل مدخل قديم شرح، وتحت كل قبة تأمل. وأمام لوحات الخط هياج وتطريب.

هُو من دلني على مقهى "على باشا مدرسة" الذي صار بؤرة وجودي، ومنطقي، يومياً أجيئ إليه، أعبر الممر الطويل، على جانبيه شواهد رخامية، ينتهي بعضها بعمائم. منها الكبير والصغير، وشواهد خالصة، أخبرني حقي بك أنها لنساء صالحات، مزرعة حجرية للموت، نُصب حاضة على التذكر لدراويش وخدام طريقة ومن بلغوا من التجربة عتيّاً.

تظلل الممر المعتق تكعيبة عنب، يتموج الفراغ بعبير الريحان ونعناع وليمون، ينتهي الممر إلى فناء فسيح، فراغ منظم، مؤطر، في نهايته مدخل القبة الأصلي، المرتفعة، تحوى الجزء المغطّى من المقهى، في الوسط حديقة ينبت منها صبار وشجرة تين، على الجانبين عنب يتدلى، يشرف على متاجر تعرض أبسطة ملونة، ربما كانت مقاراً وخلاوي للصوفية زمناً، أستسلم لتقاطع الوحدات الزخرفية وتماثلها وتفرقها، تمتزج برائحة التنباك. سلوتي ومؤنس انقطاعي عن المواقيت.

قامتْ بيني وبين عمال المقهى وبعض رواده صلة. عرفت الأسماء والألقاب، ومواعيد النوبات، حدثني أحدهم عن صاحبة المكان المشلولة، ورثته عن أمها، تعيش الآن وحيدة قرب مقام سيدي أيوب الأنصاري، لاعقب لها لكن.. من يدري، ربما يظهر أقارب في اللحظة الأخيرة.

أبدى حقي بك دهشته لارتباطي بالمكان ومعرفتي الدروب النافذة إلى ما يحيطه، خاصة السوق المغطى، لم أطلعه على زيارتي القديمة، وانفجار البهاء الأنثوي، أزرق، أصفر، وشروعي في المكث لولا نقصُ الهمة، لم أخبره بظهورها في حصن بعيد، غريب، كدتُ أهلك فيه، بل إنني لم أستعدْ لحظة ظهورها، وحدوث دهشتي وروعي. مررت بالموضع عينه، لم أتوقف عنده، استعدتُ

ماجرى وطيفُ سخريةٍ يحلقّ عندي. هنا اتكأتُ وهُرِعَتْ دقاتُ قلبي في إثر بعضها، مالي منبتٌ مقطوع عما جرى. عن اللحظة والوضع، لو قرأتُ عن مثيلٍ لما مّر بي ربما تأثرتُ به أكثر، أحقاً جئت هنا من قبل؟ أحقا نفس المكان؟. ما المكان إذن.. إذا لم يحدث مثولي به عين الأثر؟ عللت بهتي وانصرافي بحالي وشدة توقي، لكن.. ألن يلقى هيامي هذا عين المصير؟

أنفض الخواطر عني، مالي أسبق الوقت؟، لماذ أسترجع سيرتي الأولى، مغادرٌ دائماً للحظة الآنية، أستعيدها بعد زوالها، أو أتخيلها قبل وقوعها، يتنافى ذلك مع مشروعي.

أصغي صابراً إلى حقي بك، يحدثني عن أولاده الموزعين على أنحاء الدنيا، أحدهم صاحبُ مطعم في ارلنجن بألمانيا، وآخر في جامعة إنديانا بالولايات المتحدة، وثالث في السلك الدبلوماسي بقنصلية بلاده بجدة، وابنة تعمل في مؤسسة تعنى بالمخطوطات الفارسية، والتركية والعربية في فرانكفورت. لم يتصور اقترانه بزوجة أخرى. يردد عند ذكر امرأته :

"كانت تريحني .. كانت تريحني جداً .. "

نطقه بالإنجليزية مشابهٌ لإيقاع كاتب مسرحي شهير عرفته، بعد رحيل زوجته ردد على مسمعي نفس الألفاظ - لكن بالعربية - وعندما أصغيت إلى حقي بك كأني أسمع الآخر بلغة مغايرة !

يبدو متحمساً، متدفقاً، فسيح الخطى، لكنه يصمت أحياناً، تتوارى لمعة عينيه، ينسحب بعيداً رغم حضوره في مواجهتي، وقد يتطلع إليَّ بكراهية، كان ما يعنيني اختيار الوقت لأبدأ استفساراتي، كنت أحفظ المعلومات التي ظهرت كمقدمة للشريط وخاتمة، تاريخ التسجيل ومكانه واسم قائد الفرقة، فرق الموسيقى الكلاسيكية متنوعة، أشهرها التي يقودها الدكتور "نفزاد" صديق

"أكمل أوغلو"، جاءت إلى مصر. وأصغيتُ إليها في قاعة سيد درويش. جرى ذلك سنة تسعة وستين.

أصغى حقي بك، لمس كتفي بودّ، قال إنه سيخبرني غداً، لكنه في الموعد الذي حدّده لم يجلسْ، إنما بَقِيَ ماثلاً، قال بلهجة آمرة، واثقة، وصوت مثقل بوقار قديم :

"قم ! "

تساءلت بالنظر ، كرر :

"قم ! "

أجبته مستفسراً :

" إلى أين ؟ "

قال بثقة :

" إلى مبتغاك . "

مضيتُ خلفه إلى الميدان الفسيح. مابين كنيسة "آيا صوفيا" ومسجد السلطان أحمد. ما بين العمارتين المتواجهتين، المتناقضتين، فراغ يضج بالصراع والتماثل، اختلاف وتشابه، قباب أيا صوفيا المتساندة، الصاعدة، أصل لسائر القباب العثمانية، وما بينهما وقفت.

صباحٌ صحوٌ، والساعة تمام العاشرة، ومياه البوسفور قريبة، والبصر يطالع الماضي في الحاضر، هنا يتم ذلك التماذج فينوء الفراغ بذلك الشجن الرماديّ، لم أعرف مكاناً مماثلاً إلا ميدان الرميلة، ما بين قلعة الجبل، ومسجد السلطان

حسن، مُضِيّ الوقت على العمارة يضغي عليها ما يخاطب الحواس مباشرة، أدركت ذلك بعد طول سعي.

إلى جواري حقي بك. وقوم من جنسيات شتى. يتطلعون إلى الفرقة المصطفة فوق مسرح مكشوف، العازفون يجربون آلاتهم. كان ترقّبي مغايراً، ولم أكن متسرعاً، بدأتُ بالنظر إلى الرجال، إلى العازفين، إنما أردت تأجيل البحث خشية وقوع الخيبة.

أعرف بعض الملامح..

عازف الطنبور.

رأيتُه، أيضاً.. العود. ضابط الإيقاع، الكمان..

هذا كله مجرد تمهيد. مطلع يفضي إليها. موازٍ لأيامي وشهوري وسنيّ، لشوقي وحنيني وألمي واتباعي وصبري وطول انتظاري قرب الأعتاب الفاصلة، هكذا.. بدا ما بيني وبينها قريبا، قصيا في الوقت عينه.

هي ...

هي ...

ما بين وقوع بصري على صورتها ورؤيتي حضورها ثلاثة شهور وأربعة أيام وستة عشر ساعة، خلال المدة تغير حالي. وحاد مصيري..

ها هي ..

لا يعرف أيّ من الواقفين، المصغين، العازفين، المنشدين، الشاخصين، المترقبين ما تعنيه وقفتي. ما يدل عليه شخوصي إليها، تعلقي بجمالها الصريح، بانبثاقها الأشم.

ما بين وقوع بصري على حضورها، ونطقي أول لفظ المخاطبة، متجها إلى سمعها مباشرة بدون وسيط ساعتين إلا خمساً وعشرين دقيقة، واجهت بهاءها بوجل، ودخلت دائرة سناها برهبة، إني لمدرك أهمية النظرة الأولى، لتماس حوافنا غير المنظورة. أعرف أن المصائر تتقرر في البداية، وأن الصدّ أو القبول له بزوغ عند بدء التماس، أودعت ملامحي كافة ما أقدر على إبلاغه، الخطورة الأولى تحوي المضمون. وما يليها تفصيل، لم أكن في حاجة إلى التدقيق، فما مررت به يؤهلني للحضرة.

لم أبدل في القول. ولم أعبأ بأي رقيب. لم أدَّعِ خلاف ما جرى، ولم أذكُرْ ما هو غير حقيقي، صرتُ صريحا كالحليب لحظة انبثاقه من الضرع. أفضيتُ ببداية أمري، وقوع بصري على صورتها الناطقة، تقلقل حالي. ورحيلي في طلبها، أصغت بدهشة بكر وانفراجة شفتين رقيقتين كادت تذهلني. كأنها لا تصدق ما تصغى إليه ولكنها ترغب في الاقتناع.

الصدّ أو إبداء السخرية كاف لمقتلي، غير أنها أبدت ما لم أتوقعه، ابتسمت برقة، وقالت إنها مسرورة لسماع ذلك وإن كانت لم تسمع بمثله ولم تقرأ، توقفتُ لحيظة، لمستُ صدرها بطرف أصبعها..

" جئتَ من أجلي ؟ "

أجاب حقي بلك عني :

" صدقيه .. "

ارتحتُ لتدخله الحميم، إذ خشيتُ غضبه لإخفائي التفاصيل عنه، لكنه بدا متعاطفاً، متأثراً، قالت إنها تدعونا معاً إلى حفل محدود مساءَ بعد الغد، ستغني منفردة، التفتت إلى سيدة عجوز، أصغيتُ إلى إيقاع اللغة، وتمكنتُ من مشهد ملامحها الجانبي وانبعث داخلي أنينُ ناي عتيق. أقلعت إليها غير أنها لم تعاود

النظر إليّ. كأنني لا أدخل في مجال بصرها، وعندما بدأتْ تبتعد لم أتحرك. ظللتُ ممسكاً ببطاقة صغيرة موضحٌ عليها عنوانُ المكان، كنتُ قَدَّمْتُ إليها قلماً لا يفارقني، مداده أخضر، أدون به الملاحظات والخواطر، خطّتْ به الكلمات الدالة ثم أعادتْه إليّ. قبضت عليه من حيث تناولَتْهُ ليقع اشتراكٌ حسيٌّ بيننا في ملامسة غرض واحد.

هذا خطها إذن !

أين حقي بك ؟

أين ذهب ؟

تلفتُّ، مضيت هنا وهناك، لم أجده وداخلني يقينٌ محيّر أنني لن ألقاه مرة أخرى، مشيتُ موزعاً بينها وبينه، طلّتها. ظهورُه الهادئ. وقفتها الشماء، الحنين الذي يفيض منه عندما يتحدث عن أولاده المتفرقين بعيداً..

حقاً له أبناء ؟

لم يطلعني على صورة أحدهم، من يدري ؟

عبرتُ كوبري جلطة، آويت إلى مقهى تحته، مطل على مياه القرن الذهبي مباشرة، رائحة التنباك، ونرجيلات يلتفت حولها شباب قادم من أوروبا، يتبادلون التدخين، والاكتشاف، عندما بدأت أنفث الدخان تطلعوا إلى الحنكة والتجريب، ابتسمتْ إحداهن، بدا فضولهم، تطفلهم، غير أنني لم أبادلهم إشارة، كنتُ ساعياً إلى الوحدة لأستعيد ماجرى، لأعيشَه من جديد، لأرى مالم اشهدْه لحظة وقوعه، كثير مما يمر بي أو أعبره لا أكتشف أبعاده إلاّ بعد انقضائه. بعد بلوغي لحظات حاسمة يتحقق فيها المرام كنتُ أقيم حفلاً لا يحضره سواي، أجلس منزوياً في مقهى، في حديقة، في موقع مطل على النيل. أنفرد بما جرى،

بلحظات التلقي وتمام الاتفاق. تلك لحظات يطول الحديث عنها لذلك سأفرد لها وأفيض لكن في غير ذلك التدوين.

مضيت أستحضرها. أتمثل سموقها، وانتشارها، غير نادم على شدة سعيي كنت أخشى دبيب فتوري الذي يبدأ مع قرب التحقق، واجهتُ سروة صفصافية، لحضورها لونٌ أخضرٌ زاهٍ. لها ما قبل بزوغ الشمس مباشرة. أيضا.. ما بعد مغيبها، كذا.. لحظة اكتمال الفكرة.

بدأ سعي آخر..

اقتفيتُ حفلات الفرقة، والأمسيات التي تحييها بمفردها، ليس في استانبول فقط، إنما في أزمير، وبورصه، وأنطاليا، وأنقرة، وقونية حيث مرقد مولانا جلال الدين الرومي. أصبحتُ جزءاً من فريقها وإن كنتُ منفصلاً. صار أمري معروفاً لرفاقها، جرى بيني وبينهم لفظ مسموع ومرئيّ، عند فتح الستار أو إسداله.

أثناء عودتنا من قونية، بعد وقوع بصري على حضورها بثلاثة وثلاثين يوماً تبعتُها خلالها أينما ولتْ وجهها. دعوتُها ولبتْ. مضيتُ إلى المقهى مبكراً، ساعة قبل الموعد حتى يمكنني التأهب والتمكن، أتمثل ظهورها، توقفها، بحثها عني، ألثم يدها، أدعوها إلى هذا الركن المتين الذي اعتدتُ الكمون فيه، استدعي الرجل ذو الشارب الكثيف، كردي من ديار بكر، يبادلني وداً، يتحدث بإنجليزية متعثرة وبإشارات منطلقة، يطيل وقوفه أثناء تغييره الجمرات المشتعلة، يبدو مبتهجاً لظهورها إلى جواري، لم يرني من قبل إلاّ وحيداً، أو.. بصحبة حقي بك، آه.. أين ذهب، ولماذا اختفى حتى من الفندق مقر إقامته.

بعد انصراف الكردي. بعد أن رشفتْ الليمون الحامض الساخن. قالت :

"ماذا تريد مني ؟ "

نفس الإيقاع، نفس التساؤل الحاضّ الممهد للقبول، سمعته منذ عشرين سنة، عندما بادرتني محبوبة ارتبطتُ بها زمناً. لكن.. المكان كان هناك، على ضفة النيل في القاهرة. قرب شجرة جميز قديمة، راسخة، تطلعتُ إليها. تماماً كما بدا رد فعلي من قبل.

" أنت .. "

لبيت طلبها، قصصتُ عليها كافة ما مرّ بي منذ رؤيتي صورتها، كانت تضوي بألق داخلي أثناء إصغائها، وتعبير ثابت يصعب توصيفه، قالت فجأة :

" أين تذهب بعد لقائنا .. "

أبرزت بطاقة الفندق حيث أمضي الليالي منفرداً، مقطوعاً. حسم دال

" اتبعني .. "

إلى جوارها، دائماً في المقعد عينه. أنتظم في مدارها. لها أريج البوادي، وعبق النواصي القديمة، قالت إنها متجهة إلى الجانب الآسيوي، صاحبة عزيزة تمتلك بيتاً من طابقين. على مقربة من حديقة فسيحة يتوسطها قصر جميل يطل على البوسفور. بناه الخديوي إسماعيل تم أهداه إلى الخليفة العثماني.

ضمة شفتيها عند نطقها حروفاً معينة، ميل رأسها في وضع التساؤل أمر يُلحق بي ذهولاً ويسبب محنة، طلّتها الجانبية تذهلني، ذلك البهاء الحاوي للدلال والاستنفار وكبرياء، مس طفولي يمتزج بشذا أنوثتها.

حدثتها عن صاحبي "أكمل أوغلو"، عن عملي في المركز الذي كفل بقائي من أجلها، عن حقي بلك واحتفائه المحير، قلت إن الغربة لم ترهقني لأنني أعيشها دائماً. وأقسى غربة ما كانت في الوطن، حدثتها عن دخيلتي عندما لبت موعدي. تمنيتُ لو أوقف كل من أعرفه أو يقع في دائرة بصري لأخبره بالنبأ

العظيم، أن أفيض على الآخرين، أن أحقق بعضاً مما سعيت إليه، استرداد حيوية الدفقة والبهجة، في زمني الأول كنت قادراً على استحضارها بالقليل من الجهد واليسير من الزاد، مطلع أغنية، الحناءة نغم، هبوب نسيم، تحرك غُصَيْن، ملامح مجهولة عابرة. عطفة مؤدية، أما الآن فلابد من تغيير أشد لتحقق الانطلاقة، لابد من مفارقة ديار وعبور بَوادٍ.

قلتُ إنني عانيت الغروب في استانبول، تتوحد عتاقة المدينة باختفاء الشمس، فتبدو اللحظة قاسية، ثقيلة الوطأة، قلتُ إنني لم اصغ إلى صوت يفيض بالشجن مثل الأذان الذي أستمع إليه فجراً، قلت إنني جئت من قبل، ورأيت منها ما أثارني في حينه، لم أخبر عن الإشراقة المفاجئة، مرسلة الأزرق والأصفر وافتقادي الجذوة عند مروري بالمكان عينه. المكان.. ما المكان؟ قديماً كنتُ أردد ما يعني ثبات الموضع وتغير الوقت، لكنني أدرك متأخراً أن المكان بزمانه، المحل بوقته، بما يحويه، فإذا انقضى الحال ذوى المكان أيضاً، حتى وإن وطئته نفس الأقدام، واحتوته النظرات عينها !

تتجه إليّ بينما العربة تستدير عند نهاية طريق منحن.. أعرف هذا الوضع، عندما تريد الأنثى حسماً، أن تبوح صمتاً، عيناها، ملامحها، تحويان من الحض والأمر والرغبة والرجاء مالا يمكن للمنطوق أن يبلغ به، ولأنها مقصدي فقد تهيأت. وكنت أنقل الطرف ما بين لحظتين.

وقوع بصري عليها لأول مرة والنغم المنبعث من الفرقة الشادية.

دنوها مني الآن ورائحتها النضرة.

ما بينهما سعي.

قالت إنها اعتادت أن تُمضي وقتاً بمفردها في شقة صغيرة يمتلكها صديق زميلها. شاذ جنسياً، تقضي الوقت للتأمل، وقد يمر يومان أو ثلاثة بدون خروج، بدون أن ترى الشارع.

مشيتُ.. ليس إلى جوارها. إنما أتبعها. تأخرتُ نصف خطوة، حتى أتمكن من استيعاب فراهتها، وامتدادها. وشبوبها. كنت مواجها بمجرة أنثوية، ينتظم عبرها كل ما أرغبه. لكن حيرتني إشارتها إلى زميلها. لماذا قالت إنه لوطيّ؟

لم نبتعد عن العربة كثيراً، نتجه إلى البيت. ربما يمت إلى القرن التاسع عشر، نوافذ مستطيلة خشبية، نقوش محفورة في الجص البارز فوق الشرفات. تذكرت ميدان العتبة، فندق البرلمان، مبنى البريد، مبنى صندوق الدين، متجر صيدناوى. هذا الفراغ المصاحب لحضور القِدَم..

تتقدمني. دهليز طويل. رائحة غامضة، رطوبة، أصداء بعيدة للحظات صعبٌ تحديدُها وموادّ يصعبُ تعيينُها، فناء داخلي يطل عليه أربعةُ أبواب، تقدمتْ إلى الباب المواجه للمدخل. صعدتْ متمهلة، شعرُها في لون الحناء، تماماً كما رأيته أول مرة عبر صورتها.

لماذا أعلنتْ شذوذ صاحب المكان؟. حيرني ذلك، ينتابني الارتباك والقلق الغامض إذا حضر شاذ، عندما فتحت الباب انبعثتْ رائحةُ مُبيد قوي.
استدعت إلى ذهني رائحة مماثلة مرتبطة بتابوت خشبي مفتوح عند مدخل بيتنا القديم، في انتظار جثمان والد جارنا. كان شيخاً عجوزاً، بارز الحنجرة، نحيلاً.

صالة ضيقة، حجرة واحدة في المواجهة. مرتفعة السقف. تطل مباشرة على الفناء الذي عبرناه، مكان قصيّ، معزول، كيف أعود إلى الفندق إذا غادرتُ منفرداً؟، اين ما أتواجد فيه عندما كنت طفلاً في الجمالية؟ هل خطر ببالي بلوغه؟. كان مخفياً في تلك اللحظة التي بلغتها بعد طول جهد وخفق قلب.

تقف إلى جواري، ألتفتُ إليها، تتلاقى نظراتنا، ها هي مقبلة، مبادرة، لا تلتقي شفا هنا بل تمتزجُ ببعضها، تجوس يداي على ذراعيها، كتفيها، ظهرها، تحف بنهديها النافرين. يجرد كل منا الآخر. وعندما اكتمل بهاء عُرْيها تراجعتُ خطوة لأحتويها بالبصر.

سامقة، فارهة، متينة العمارة، بهية التقاسيم. نادرة الإيقاعات، تستلقي متهيئة، تشير بيدها إلى حقيبتها الصغيرة. أفتحها.. عوازل طبية، لا يمكنني تقدير العدد حتى الآن. أغلفة فضية، كتابة باليابانية. تقوي رائحة المكان. ذلك المبيد.. يبدأ حطي.

تشير أن أقترب إذ رصدت بعضاً من تأخري، تتحسس جسدي. تلثم عنقي، صدري، تسعى كلها نحوي.. أتطلع إليها، إلى الفراش، إلى الحقيبة. إلى سجادة قديمة. إلى طرقها المؤدية.

أمن أجلها فارقتُ وحِدْتُ ؟

فَصْمُ العُرَى

يوم جمعة، رغم ذلك خرجتُ، أفضّل البقاء في البيت، خاصة أول النهار، كسر العادة بالتأخر في النوم بعض الشيء وإبطاء الإيقاع. لكنها الفرصة الوحيدة المتاحة لوداع صاحبة عزيزة. لا تجيء إلا مرة واحدة في السنة لتقضي شهراً تقريباً.

قصدت منطقة الأهرام حيث تقيم في بيت اشتراه ابنُها الوحيد، تحيطه حديقة مؤطرة بسور مرتفع. اجتزتُ الباب الخارجيّ حذراً، لم أر الحارس. وكنت وَجِلاً من الكلاب التي أخشاها. ضوء شفاف يمت إلى لحظات بهجتي

المستعادة، لا أعرفه في فراغات مدينتنا إلاّ أيام الشتاء أو نهارات الصحو التي تتخللها نسمات متواصلة تقُصي الغبار. يعمّق الألوان. خاصة الأخضر. على جانبي الممر الطويل المؤدي إلى مجموعات زهور بنفسجية يتوسط كلاًّ منها لمحة من لون أصفر، لسبب ما تذكرت جُسراً خشبياً في حديقة ما لم أستطع تذكر اسمها بالضبط. مجرى صناعي رقراق. أوراق بردي. زهور اللوتس المقدسة، وأقباس أخرى من نباتات أجهلها، أشجار البرتقال مثقلة بثمار لم تقطف بعد. بعد منحنى تبدو بوابة تتخلل سوراً أقل ارتفاعاً، هل رأيتهُ من قبل؟

أتوقف، لا يمكنني التحديدُ، رغم سرعة مرور الوقت، فإن اثني عشر شهراً ليس بالمدّةِ القصيرة وإن كانت تبدو عندي في محملها كذلك. يتقدم مني شاب يرتدي حلةً سوداء وقميصاً أبيض منضبطاً. ربما يعمل في أحد الفنادق الكبرى القريبة، أو التحق بالخدمة قريباً. يواجهني بابتسامة حافلة.

" أهلاً خالد بك .. "

أخرجت بطاقة تحمل اسمي وأرقام الهواتف الخاصة بي. قدمتُها إليه حتى يتبين الخطأ. نطق اسما مغايراً، ربما ينتظر شخصاً آخراً، جرت عادة صاحبتنا هذه أن تدعو معظم أصدقائها في اليوم السابق على سفرها مباشرة. خلال الأعوام الأخيرة اتسعت صلاتها بعد استقرار ابنها في مصر ودخوله إلى مجال الأعمال، تناول الشاب الأنيق، الممشوق البطاقة. لم يتطلع إليها، دسها في جيب سترته الأمامي، مد ذراعه قائلاً :

" شرفت سيادتك .. "

يقصدني أم يعني خالد المجهول عندي. ازدادت انحناءته، لم أقدر على التطلع إلى ملامحه، غير أنني لاحظت اختفاء الباب الخشبي. أين.. كيف عبرت؟ هل تغيرت كثافة الأشجار؟

ممرّ آخر غير مرصوف، حشائش طويلة محيرة، لم يظهر البناء بعد، تغير شامل وقع، درجة الضوء مخالفة، من وهج هادئ إلى تألق حاد، اختلفت أيضاً درجات اللون الأخضر وجذوع الأشجار وطبيعة التربة. كانت في المسافة المنقضية سوداء ناعمة. أراها الآن حمراء. الاختلاف جعلني أحذر النظر إلى الوراء خوفاً من يقين غامض بدأ يتضح.

لا تمضي خطاي صوب البيت. إنما تنقلني من حال إلى آخر. أجهله في تفاصيله. لكنني ملمّ به في جملته، كأن شخصاً ما مرق إلى جواري وأفضى بما أنا ملاقيه ثم مضى.

الآن.. أمضي فوق أرض العراق، بالتحديد.. ضاحية من ضواحي بغداد، منطقة زراعية، مترامية التكوين. ناحية الرشيدية، لم أعرف كيف وقفت على اسمها، بالتأكيد لم أكن مأخوذاً بما أراه، فكأن بصري احتواه من قبل.

لم يكن النهر القريب ذلك المألوف لي، الحاضر عندي دائماً وإن لم أمش بجواره. إن لم أقعد بجواره، أينما وليت وجهي في القاهرة، في أي مدينة أو قرية أو نجع. حتى في عمق الصحارى، غربية أو شرقية يدركني النيل. غير أن هذا النهر الساري على بعد يسير لم أره ولم أبحر عبره. لم اسمع به إلاّ في قصائد الشعراء، ومراجع الأدب القديم والتاريخ المندثر، حضوره أنثويّ، ربما لتأنيث اسمه "دجلة"! سمائي القاهرية بعيدة. أستظل بأخرى تبدو أعمق زرقة وأشد انبساطاً، ربما لندرة المباني المتجاورة، المرتفعة. أو لغلبة الزرع، لم تكن اللحظة عينها، لا قبلها ولا بعدها، لا أعرف، لا أقدر على التحديد.

ثمة من ينتظرني ..

زوجة لم أرها. لم ألتق بها من قبل، لم يخاطب لسانها لساني، لم اصغ إليها بعد، مطلع على وجودها هنا في بؤرة معارفي. في مكان ما بين تلك الأشجار، تنتظرني بعد أن رحت أجول في الموضع. متعجباً من كثافة خضرته. وغزارة

أشجاره. لم أكن واثقاً من ملامحها. من صوتها. لكن ما أثق به في بؤرة معار في الجديدة أن اسمها "تريا"، أقصدها بدون اضطراب، بغير الدهشة المتوقعة حتى مع انقضاء الأوقات، ومرور ما لم أعهده من قبل، توقفتُ عن العجب رغم انتقالي فكأن ما يجري لي يخص غيري. كأني أرقب ما يجري لذاتي، غير عابئ، كأن أمري لم يتبدل، وعندما وقع بصري عليها لم أمض إلى تأملها أو تفحص معالمها، ألمت بها في جملتها ورغبتها لحظة وقوع بصري عليها.

مستلقية على الحشائش الكثيفة. متكئة على مرفقيها، وثابة العينين، نصف جسدها الفاره ملاصق للأرض، أعلاها ينهض بميل، منفرجة الفخذين، مرتدية "الجينز" الأزرق وقميصاً في لون السماء الصافية، تخترقه حلمتاها لتطلا بوجودها الأتم للمشهد كله.

في حضورها توثب وتحفز. امتناع وحضّ. قبول ودفع. كل ما فيها مركز، محور، أما عيناها الفسيحتان فمنهما الخلاصة وهما الأثر الباقي، لا أستعيد حضورها في أي موضع، أي لحظة، إلاّ وتبدو عيناها أولا ثم تأتي التفاصيل، أما الصلة الكامنة بين شفتيها ومجملها فمما يطول الحديث فيه.

صيغت كما أتمنى، كما أرغب، بل إنها حاوية، جامعة، فقوامها للمرأة الألف، ولون بشرتها الصفراوي الأشقر من القرطبية، وانفراجة شفتيها من محبوبة لم يرد ذكرها في هذا التدوين إلاّ تلميحاً، لذلك نزل عليَّ بَهَتٌ رغم وعيي البازغ أنها تَمُتّ إليَّ. وأنني أنتمي إليها. رغم اليقين الداخلي إلاّ أنني اعتبرت البصة الأولى بمثابة البداية عندي. شرارة الانطلاق وبدء الرحيل، رغم أن وصولي اكتمل بإدراكي لها. وإن علمتني الأيام أن الرحيل في الوصول. والوصول في الإقلاع. ولولا السفر لما كان الرسوّ، مع صعوبة تحديد أسبقية أيهما، تداخلتْ لحظاتي بأوقاتها. اجتهدتُ لإخفاء عجبي وتوقي إلى معرفتها واحتوائها. رغم عمومية إدراكي إلاّ أنني مشوق إلى التفاصيل. كيف يجري هذا

كله عبر ماخيل إليَّ أنه هنيهات. مع أنني طالعت في كتب الأقدمين ما يقرب من ذلك. وقوع ما يقتضي الكثير في الزمن القليل، لكن.. فرق شاسع بين أن نقرأ وأن يجري لنا ما طالعناه مسطوراً. خطرت لي صاحبتي المنتظرة، تمنيتُ لو أتيح لي وداعها. لكنني لست على يقين بإمكانية رؤيتها مرة أخرى. وهذا أول هبوب من حالي الأول في حالي الثاني يتعلق بموعد عابر، وليس بشيء من أموري الثوابت.

كنت مستسلما، مدفوعاً إلى كافة ما يتفق لي، عبقها آثار عندي بهجة وحسرة، البهجة لفرادته والحسرة لأنه يدنو من فوح أدركته بعد طول كد حتى أنني فارقت الأهل والوطن من أجل صاحبته، وعندما احتزت وتمكنت، وشارفت أدركني ما خشيتُ وقوعه. حتى رجوت انصرافي وكدت أنوح لأنفرد. وعندما أنْفَصَمتْ العُرى، واستحال الوصل، لمت نفسي وشارفت على هلاك مبين. لكم بحثتُ عن ظلها بين الظلال. وإيقاع صوتها، وطريقتها في نطق مخارج الحروف. لن أفيض، التذكر جالب للحسرات والأوجاع، عندما رصدت ملامح عبيرها لزمت. وإن تبينت فيما تلي ذلك خصائص تحقق لامرأتي البغدادية الفرادة والتمكن.

عطرها أولاً، أعني ما ينبثق من جسدها. غير أن أعجب مالاقيته منها تغير نسائمها تبعاً لأحوالها. تغيبُ روائحهاَ الجلية عند شرودها. وتقوى عند تجردها واكتمال ألق عُريها وشبوب رغبتها، تمتزج بهبوب لطيف عند فرحها أو عبثها. تماماً كمدخل دكان للعطور، قصدته مراراً بصحبة والدي - رحمه الله - وكانت تربطه بصاحبه مودة، تعرف إليه أثناء صلاة الفجر في مسجد مولانا الحسين، كان اسمه البلديسي عند شرودها أو استسلامها للحزن يلوح منها طيف المسك الغامق. لكنني أسبق فلأتمهلْ، قبل الدخول إلى سرد أيامي البغدادية أتوقف عند البدايات، بعضها لا أستعيده إلاّ وتحدث عندي رجفة.

تقترن الدهشة واللذة بالبدايات. أما الخضم فمفروغ منه، متداخل، يفسده التكرار. كل من عرفتهن أو رغبتهن وأدركتهن بالمخيلة تحدد أمـ معهن منذ اللحظات الأولى، إنما الأمر ظهور مباغت، ثم تعقبه التفاصيل والتفاسير، لا يعنيني هنا تمام الصلة أو انقطاعها. فكثيراً ما تكتمل النهايا تحقق الوصول.

البدايات ألاقة، مركزة، ساطعة، واضحة، يمكن تحديد ما قبلها وما أما النهايات فرجراجة. تستمر امتداداتها. وحتى مع وقوع الفُرقة. ونأيـ الإلف، يظل عنده ما يحرك المواجيد. ما يقضّ مضجعَع حتى لو انفرد تمـ الأقاصي. لحظة دخول أنثى مجال بصري، لي.. مقاييسي الخاصة وأسبابـ المتفردة. كم رأيت جميلات بَهَرْن جمعاً ولم يحركن عندي ذبذبة.

ماذا يجري لحظة تجلي المحبوب ؟

هل يفد من الخارج ؟ أم .. يخرج من الذات ؟

هل يصل من مكان ؟

هل يكتمل في زمان ؟

هل نولد به، وتبقى الملامح غائمة حتى يقع ما ينبه ويحرض ويدفع إ التهلكة أحياناً ؟

لا أدري.. وما من إجابة شافية، لكنني أحمد الله أنني مازلت قادراً الطرح، كثيراً ما يكون التساؤل ابلغ. وأدل وأشفى من الجواب، ما أعز تلك اللحظات المترفة حددت مراحل عندي، وأرست علامات، عشقـ الشروع عند توافق النظر، وتواصل المعنى بالمعنى بدون نطق. لكم استمـ لنظرات آمرة، ساعية، حاضّة. شارحة، داعية. ركنت إلى لحظات الصـ العامرة، الضاجة بالرغبة والتوافق. لكم أستعيد قول محبوبة سيرد ذكرها

تدوين أخصصه لمن طالعتُ أسرارَهُن، وأخذتُ عنهنّ، وأخذوا عني، بنفس إيقاع ربة النغم التركية..

" ماذا تريد مني؟؟ "

الصيغة تساؤلية، لكن الجوهر تلبية، كنا نجلس قرب حافة النهر، تجمعنا خضرة ضوئية لحشائش ناعمة كوبر النعام، لحظة نطقها بالسؤال دبت حرارة عندي فاشتد أمري وتأهبت لاختراق الفضاء وإحصاب النجوم في مداراتها، أستعيد القدرة على الجمع بين الضدين مبهوراً، الظاهر المستفسر المشوب بلوم وتحذير وربما مسحة غضب. الباطن المجوهر، الحاوي للرضا والاكتمال.

زمن مغاير حوى حديث طويل لزمت خلاله الحذر. كان توحهي إلى محبوبتي القديمة تلك ممتزجاً بالمهابة، كنا في بيتها، طابق مرتفع، نافذة مفتوحة تطل على ساحة مستديرة بالزمالك، لا تقع في مواحهتنا أي بنايات، تطلعت إلى السماء الدانية، وعندما عدت إليها بعيني، كانت تنظر إليَّ بلوم صامت، ناطق..

أشرت إلى جواري الخالي..

"تعالي هنا .. "

لم أعرف سرعة تتخلل مثل الحاجز الضيق الفاصل بيننا، انتقلت من موقعها حيث تواجهني إلى جواري، مِلْتُ ناحيتها. برِكْتُ بحملي كلّه على شفتيها. وقد حاولتُ التعبير عن تلك البداية في كتابي "خِطط الغيطاني" فليطالعه من يرغب.

أما البداية التي سبقها تمهيد استغرق أكثر من عامين فأعدت صياغتها في دفترْين. الأول يختص بالاندلاع وعدم التمكن وعنوانه "رسالة في الصبابة والوجد" والثاني محوره اللقاء والامتزاج. ولثراء ما جرى أفردتُ فصلاً يصف

لحظات هلاّتها. ضمنته "دفتر العشق والغربة"، ما يعنيني هنا لحظة وصولي بيتها في موسكو، وتحركها في الحيز الضيق لشقتها الصغيرة، وذلك الجمود المحير، الثقيل، حَطَّ عليَّ بسبب تحقق ما سعيت إليه زمناً طويلاً وبذلي الجهد. غير أنها كانت زاهية الذكاء، شفافة اللماحية، مفردة في كوني !

هي.. أكثر من فهمت عني بعد الراحلة أمي مع اختلاف المتطور، وهي من دلتني على ما لم أره من نفسي، ومن ذلك الشجن الغروبي، والدمعة المعلقة، والاندفاعات البكر، والدهشات الأولى، ونطق الأصابع عند بهت اللسان. وبغتة ظهور التعابير الكامنة. لحظة البدء بها منفصلة عن كل ما عداها. استلقائها فوق الفراش. دنوي من وجهها، نطقها المنغم، المنعم.

" هل تريد الآن ؟ "

" لا .. لا ليس الآن "

دهشة أضاءت عينيها. سارعت موضحاً. مشهراً :

" أريد من قبل.. ومن بعد .. "

عضت شفتها السفلى بسنيها الأمامين الأفلجين :

" رائع .. رائع .. "

وبدأ إنشادنا المتناعم. المتوافق. الساعي إلى الكمال، ليس بمقدوري الإفاضة، فالأمر عويص، وينأى عن قصدي هنا، وأخشى الإطالة في غير محلها، لكنني أوجز فأقول إنني مع طوافي كله لم ألق أجمل ولا أكمل من لحظة بوح الأنثى بقبولها وسفورها عن رغبتها، بالنظرة. باللفظة، بالخلجة، بالشهقة، بالتنهيدة الحرى، وقد جربت هذا وأتطلع إلى المغاير لأعيش بدايات أخرى. لأجري

المقارنة بما يحويه رصيدي الذائل، النافد أبداً. غير أني مهما تمنيت أو تخيلت. فلم أتوقعْ قط ما وجدتُ نفسي فيه بعد اجتيازي البوابة.

بداية لم أعرف مثلها، هكذا وقفتُ أمام مَنْ أعلم وأجهل في الوقت عينه، يداي تلامسان خصري، حاسَّة شمِّي مستنفرة لتقبل واستيعاب روائح لم أعهدها، منها المنبعث عبر الحشائش المغايرة. والطين الأكثر بدائية. والهواء الآتي، وأنوثتها الفياضة.

استلقيتُ إلى حوارها، أنتظر حديثها متودداً بالنظر، من الواضح أنها تنتظرني، في عينيها دعوة وحض. من ناحية أخرى وحب لي التعلق، إنها مدخلي إلى حقيقتي الجديدة التي أجهلها. العجيب أن رائحتها المختلطة بالأرض والحشائش أججت رغبتي. حتى أنني لم أعد أعبأ. هكذا شرعت، هويت بشفتي محتوياً ارتواء فمها، دفعتُ لساني إلى أقصى مدى، لم أكن أعانقها إنما ألوذ بها، أرتدّ اليها. أثارني ما صدر عنها من أنين خافت. وشهقات مقموعة، وانفلاتات استثنائية. استفسرت هامسة بعد استقرارنا. متعجبة لما جرى لي. أليست بصحبتي الوقت كله؟ داريتُ حيرتي بإقبالي، دسستُ أنفي بين نهديها المرفرفين، لعبيرها شهقة الحليب الدافئ الخارج لتوه من الضرع، أنتبهُ لأول مرة إلى تشابه رائحة النطفة بالمنبعث من الطين الطازج، الطارح، القُلّب، المتأهب لتلقي البذار.

لملمت نفسها بسرعة، قامت، ترفع بنطلونها، عمارتها سامقة أما استداراتها فنموذج. قالت إنها تفضل مغادرة المكان، ثم قالت إنها تتمنى أن تعرف ما جرى لي. هذا يحدث لأول مرة، جنون.. جنون.

" لكنه جنون لذيذ .. "

طوال اتجاهنا إلى الطريق المرصوف كانت تغمغم وتهمهم، كنتُ قادراً على تفسير بعض ألفاظها، تأبى مفارقة اللحيظات المنصهرة بيننا، مرة تسألني عما

حل بي. ومرة تذكر حظنا الحسن إذ لم يرنا أحد. ماذا يقولون عندئذ؟. رجل يضاجع امرأته في الحديقة العامة مع أن بيتهم قريب، ماذا يقولون؟

قلت إنها بدت في لحظة متفجرة، عندئذ قررت أن ألبي نداء عينيها، آلا أعبأ أو أهتم بالخلق كلهم. تردد بلهجتها البغدادية، أحببت إيقاعها. ألفاظ ظاهرها خشن، لكنها رقيقة الجوهر.

" مجنون قلبي.. مجنون عيني .. "

وعندما تحكي بلهجتي القاهرية، تبدو حروفها رشيقة حتى مع تعثر خطوها في سمعي. قالت إنها تتحدث بها قبل أن تلتقي بي، لم أدر ماذا تقصد، أو ماذا تعني؟، بالتأكيد ليس لقائنا في الرشيدية، إذن.. متى جرى ما تشير إليه؟ حتى الآن لا أتبين ظروف اجتماعنا ثم ارتباطنا. لابد أن ذلك جرى عند نقطة لم أتبينها تماماً في الماضي الذي يخصني ويخصها، رؤيتي لها بداية عندي لكن ليست كذلك عندها، تتحدث عن لقاء وعن حفل زواج في فندق كبير مطل على دجلة. وثلاثة أيام لم نخرج من الغرفة. لم نفتح الباب لطاقم الخدمة. فقط كنت أتناول صينية الطعام من خلال انفراجة الباب المحدودة، في وقت ما أُخرجها. فيما بعد سمعتها تحكي متباهية لإحدى صاحباتها..

" أيام ثلاثة لم نغادر ... "

تخفض من صوتها في إيحاءات دالة، كنتُ أنتظر مرور الوقت لأعرف وأتبين مساراتي الخفية عني، ما أدى بي إلى تلك اللحظة في البستان. غير أنني لقيتُ صعوبات. إقدامي على بعض الأمور حيرني، كذلك ظهور أفعال لم أعهدها مني. فمن ذلك ما جرى بعد وصولنا إلى مكان انتظار العربة. درتُ حولها واثقاً، وقفتُ أنتظر، قالت بدلال :

" افتح .. ماذا تنتظر ؟ "

مددت يدي في جيبي .

مفاتيح !

أولجت واحداً منها بدون أن أنتظر أو أبحث أو أختبر. دار معي. غير أن ما أذهلني قدرتي على القيادة وإتقاني وثقتي، أنا الذي لم أجلس إلى مقود سيارة عمري كله، كيف أعرف الطريق ولم أره من قبل، كيف أدور عند منحنياته؟ أتمهل عند مفارقه، مع أن بصري لم يقع على جانبيه من قبل. بل إنني مؤتلف مع كافة ما يحيطني، متجاوب، منفعل بالمقام العراقي وأنّات موسيقاه الحزينة، لكم مسني ذلك النشيج المكتوم ونبهني إلى أن ما كان لن يكون، وأن الحياة تسري طالما بقيت قدرة الشوق إلى لحظات منقضية، وأهداف كانت قاب قوسين أو أدنى غير أنها حادت. أصغيت إلى محمد القبنجي، وناظم وسليمة، ويوسف عمر، وأثارني صوت صديقة الملاية واستحضاري الجنوب الصعيدي عبر بحتها الخشنة، تمايلت مع أنغام الجالغي، والعزف على الجوزة، ولم يفتني الإصغاء إلى السنطور عصراً، دخنت النرجيلة وصار عبير التنباك الشمالي من معالم ذاكرتي، بل إنه اختزال روائح المدينة كلها. نمتُ فوق سطح البيت المحاط بحديقة نخلية فسيحة. توسدتُ ذراعي عارية في ليالي الصيف. وكنت أحاط من خلال حواسي المترقبة بدبيب الشهوة فوق البيوت المستلقية تحت السماء التمورية الساخنة.

لم أطلع على ظروف ارتباطي بها. لم أعرف التفاصيل، لكنني أدركتُ من تلميحات وإشارات شتى أننا التقينا في بغداد، وأنها واجهت مشاكل مع أسرتها. أحد أقاربها كان يريدها، وطبقاً للتقاليد فلم يكن مستحباً زواج الابنة من غريب، وأي غريب؟ من ديار مغايرة..

أصرّت .. يُدعّم موقفها استقلالها الاقتصادي. تمتلك أراضي ورثتها عن والدها في واسط. ومعملاً للنسيج في المحمودية. ودكاناً لتجارة الحنة في سوق

الشورجة. وفي الأخير صار مقري ومكثي النهاري، احتوتني الظلال، ورائحة التبغ الطازج، والشاي الأحمر في الأكواب الصغيرة "الاستكان" وشراب الليمون الطازج، ولبن أربيل. لم أتهاون في أي أمر يخصها، كنت أدير ما يمتُّ إليها بدقة وحساسية، وهي تفهم عني.

لم أعرف الحناء إلاّ في أيدي النساء أو متخللة شعورهن، لم أطلع حتى على شكل نباتها. لكنني هنا في القيادية صرتُ خبيراً بأنواعها ومواعيد زراعتها وطرق طحنها، وحفظها، وكنت أشرف على تصديرها إلى بلدان شتى منها.. مصر، كنت أعرف آنيتي بدون الاطلاع على ما كان مني، أعني ما يخصني من زمن منقضٍ هنا، أما زمني الآخر أو الموازي.. لا أدري فبدا لي بعيداً، كأنه يخصّ غيري، وبالطبع لم أقدم على البوح لمخلوق، لم أنطق بقبس مما أحتويه حتى خُيّل إليَّ أحيانا لرضائي بالحال وتنعمي معها وكَنّتي إليها أن الواقع الآخر يخص غيري. غير أن هبوب صورة أبي أو إطراقة أمي أو سعي ابنتي أو ابني هناك كان يثقلني، ويثير شجني، عندئذ تستفسر حانية..

" إلى أين وصلت ؟ "

أبتسم، مشيراً إليها. يشير إصبعها إلى شفتي

" لا أحب ضحكتك هذه .. تُخفي بها أمراً .. "

" أنا ؟ "

تميل إليَّ. خصبة، دافئة، حنونة، والله لم أمل رحابة وجهها قط وغزارة عينيها، تفيض عليَّ، أصحو فألقاها إلى جواري. تتطلع إليَّ، خرجتْ من الصباح الباكر إلى الحديقة وقطفتْ الزهور التي تفتحت ليلاً. توزّعها حول وسادتي. تقول :

" لابد أن تفتح عينيك على الجمال .. "

أجيبها صادقاً :

"وهل هناك ما هو أجمل منك ؟ "

تشير إلى صدري، إلى عيني، إليَّ

" أنت .. "

أعجز عن المحاوبة، أطرق، أفاجأ بها تنحني مقبلة يدي ..

" ليس لي إلاّ أنت .. "

بعد لحيظات سكون تكمل

" أخاف أن تهجرني .. "

أندفع إليها، أقبل أطراف كونها، أنحني محاولاً لثم قدميها. يتواضع كل منا صوب الآخر فيقع الامتزاج السكري، إذ أغادرها إلى القيسارية. أو لإنجاز عمل، أو إلى موعد ضروري أتمنى العودة إليها، أكثر أوقاتنا ازدهاراً وتأججاً ما أمضيناه معاً بمعزل ومنأى.

ليالٍ عشر في منطقة صلاح الدين .

في شقلاوة. في حوض راوندوز شتاءً. في البصرة صيفاً، ما اعتاد الناس الذهاب إليه صيفاً زرناه شتاءً والثلوج التي يهرب الخلق منها لجأنا إليها للانفراد، تلاقى منظورُها بمنظوري، تلاشى قصدُها في قصدي، غير أن ما استمر مؤلماً، منغصاً، يقيني أن إقامتي مؤقتة، وأنني عابر إلى ضفة أخرى لا أعرف كنهها، أنني مقبل على سفر.. إلى أين؟ متى؟، لا أعرف، لا يمكنني القطع أو تبين النبوءة. كما حثثتُ فجأة سأرحل في خطوة، متى.. لا أدري ! حتى بعد وصول طفلنا الأول الذي أسميتُه أحمد، كان يشبه شقيقه هناك، يشبه

شقيقه محمد هناك، بل كأنني أنظر إلى هذا في ذاك، هل سيلتقيان يوماً ؟ بعد وصول ابنتنا أطلقتُ عليها ماجدة، أصرَّتْ وتمسكتْ فارتَحتُ إلى قرارها، نفس الاسم هناك. بعد بلوغ محمد السادسة وشقيقته الثالثة، عظم عندي الهاجس بدنوّ رحيلي. أخرجُ من البيت فلا أثق من رجوعي. حتى سألتْني امرأتي البغدادية ذات صباح..

" مالك تضمني وكأنك لن تراني .. "

حُشْتُ دمعي، أنزل الدرج فلا أوقن بوصولي نهايته، أبدأ سفري إلى واسط أو المحمودية فكأنني أقطع اتجاهاً واحداً، نافذ التدبير، أصغي إلى إيقاع نبضي فأوشك على رصد الخفقة التي لن تعقبها أخرى أو لمحة ناظر.

لم أطلعها على شيء من دخيلتي، ولم أنهها عن أمر، إنما كان عيشي معها سؤدداً مبيناً، خلواتنا الليلية. وتجددها الدائم. وقدرتها على استثارة كوامني، لم ترقد إلى جواري إلاّ بعد ارتدائها أنواعاً شتى من ثيابها الحريرية الهفهافة. تفننتْ في اختيارها وشرائها من متاجر بعيدة. تصرّ على الاستمرار حتى تلمح في عيني الإعجاب والرضا.

لم تصدني قط. ولم تهمل أمري، سعت إليَّ في أويقات انطوائي، واستغراقي في تأمل أحوالي وتقليب شئوني. كانت تسبغ عليَّ ما تفيض به، دفوعها قوية. ورسائلها لا تنتظر الفض. مستحيل إرجاؤها، ومن ناحيتي أُقْبِلُ لأرشف من عطرها الداخلي، وحنوها المغدق.

لنا نزوقاتنا المفاجئة، ومشروعاتنا المندلعة، ولحظات توحد كوكبية، أما أغرب ما صادفني منها وما حيرني، فإنني لم أقربها مرة إلاّ وجدتُها مثل البكر التي تعرف خضخضات المتعة لأول مرة، تستحضر ما في الكون من جمال مهدر، مؤجل، عشتُ الأسواق من خلالها، اهتمامي بما استأمنتني عليه، أمضيتُ في الشورجة جل أوقاتي. والصفافير، وشارع النهر، وحرصت على هذا السوق

الفريد صباح كل جمعة، كافة أنواع الحيوانات، أندر الطيور. تماماً مثل سوق الحمام الممتد بين ضريح الإمام الشافعي وحتى ميدان القلعة، فيه الكلاب والتعابين وأنواع العصافير النادرة، وسائر ما يلزم من أطعمة الحمام وأدوات وأدوية. اعتدتُ شارع الرشيد. وأبو نواس. والسمك المشوي على لهيب النار، وأقمتُ الصلات مع أصحاب المقاهي وخادم ضريح سيدي عبد القادر. والرحال الساهرين على ضريح ومقام الإمام موسى الكاظم. وتأثرتُ كثيراً بمقام الشريف الرضي المواجه وداومت على الصلاة في الساحة الصغيرة المضمومة الملحقة به. ولأنني انطلقتُ إلى المدينة من خلالها صار حضورها عندي أنثويا. للحدائق لون عينيها، والليل ينبثق من شعرها وغموضها، أما النواحي فللحد من رؤيتها. الحقّ.. أنني توحدتُ بها صار حنيني إلى امرأتي الأخرى صادراً عن المهاجر المستقر، المنقطع، بل داخلني الشك في أمري أحياناً فكأنني لم أعرف غيرها.

أحببت اسمي لنطقها به، واستفساراتها عني إذ أتأخر قليلاً، أما ليالي توالجنا فأمدتني بفيض أستمد منه وأستعين. عرفتُ غضبها مرتين لاغير. ورغم شدة انفعالها واحتقان حضورها فلم تَسْعَ إلى تصعيد أو مواجهة معي، إنما كانت تفرغ طاقتها في أشياء لاصلة لي بها. ضربتْ الأرض بقبضتها، ثم انفجرت باكية.

عندما افتتح المقهى البغدادي قصدناه وأحببناه. كنا نتحي ركناً في قسم العوائل. أدخنّ النرجيلة ونأكل التكة ونتطلع إلى النهر ونرقب طفلينا وننعم بالنسمات. صباح جمعة استجبتُ إلى اقتراحها المفاجئ. أن نمضي لزيارة صاحبة لها تقيم قرب الرشيدية. زوجها ضابط كبير، أنشأ بيتاً من القصب، بناه على هيئة البيوت المعروفة بالجبايش في الأهوار الجنوبية، فرشه بسجاد ياقوتي، وفي المزرعة أحواض لتربية السمك، وما كينة لرفع الماء من طراز قديم، عاينتها في زيارة سابقة، وتأثرتُ من تكاتها التي أعادت إليَّ صوت ما كينة الطحين في

جهينة مسقط رأسي وهذا صوت مؤسس عندي، لعلي أفيض في الحديث عنه إذا تحدثتُ يوماً عن الأصوات العالقة بروحي.

صباح مبهج، ضوء عذب، خرجنا متضامنْين، متقاربين، متوحدين، عندنا الرغبة في احتضان الكينونات كافة. ملامحها مستقرة، مشعة، رحبة، لدنة فوق المقعد الخلفي محمد وإلى جواره ماجدة يحنو عليها، في اكتمالنا أمان لهما وتمام بهجتهما. استعدتُ غناء ليلى مراد، ونشأ عندي توثب.

توقفتْ العربة في الساحة الأمامية الممهدة. أشم مياه النهر القريب، الزرع الكثيف، أتقدم من الباب الذي يتخلل السور، أجتازه، أمامنا ممر ليس بالقصير، محفوف بأشجار التين، التفتُّ لأتعجل ماجدة الصغيرة، لتتعلق بيدي، ثمة شيء ما يتغير..

ضوء مغاير لا أعرفه إلاَّ شتاءً. الزرع مختلف. خضرة أعمق، على جانبي الممر الطويل زهور بنفسجية يتوسط كلٌّ منها دائرة صفراء، أتوقف، أتلفَّتُ حولي، يلحقني ذلك الشاب الممشوق. يرتدي ملابس الفندق القديم القريب..

"تحتاج شيئاً جمال بك .. "

نظرتُ إليه، ألم يناديني عند عبور البوابة بخالد ؟

ماذا جرى ؟

مختتم

إذ أستعيد ما كان مني، أجد أن ما تمنيتُه من النساء أكثر ممن أدركتُهن بالفعل، بعد فوات الأوان أعقل أن البعيد النائي أثار عندي ما لم يحققْه القريب الداني، وأن اكتمال الشيء يعني نقصانهَ أو بدء نفادِه. لذلك قالتْ لي يوماً محبوبةٌ ممن أدركتُهن بالتحقق وليْسَ بالحلم. عندما لاحظتْ صمتي، ورصدتْ بدء نكوصي..

" يبدو أنك تعشق المستحيل "

ربما كان ذلك صحيحاً. لكن لا يمكنني الجزم أو القطع بأي شيء الآن، ذلك أن التحديد واليقين يكون في بداية الرحيل أنصع.

مع الدنو الحثيث يبدأ اللايقين، والغريبُ أن الإنسان إذا اكتمل رَحَل، أو يمضي بعد تمامه، يذهبُ جاهلاً بأقربِ المكونات إليه، بجسدِهِ ونفسه، هذا حديثٌ طويل لو بدأتُ الخوضِ فيه لن أكفّ، لكنني أكتفي بتلميح متضمناً بعض تصريح. إنَّ أثْرَى ما عشتُه لم أعرفْه ولم أدركْه إلاّ بقوة المخيلة، وما انقضى مني راح جُلُّه في التمني. لقد أُوصِدَتْ دوني أبوابٌ بلا حصر. حالتْ وصدت طرقتُ برفق. وأحياناً صرختُ. ولم يأخذْ بيدي إلاّ تخيلي ما وراءها، واجتهادي في طي الفراغات العُلىَ. بعضها فتح لي، اجتزتُه وعبرتُ عتباته، فلم ألق إلاّ الحسرة وبواعث الآهات، ذاك نثاري.

جمال الغيطاني – ١٩٩٥ – ١٩٩٦

إصدارات شرقيات

روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية / خيري شلبي
رائحة البرتقال / محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار الخراط
يقين العطش / إدوار الخراط
أوراق زمردة ايوب / بدر الديب
صخب البحيرة / محمد البساطي
متون الأهرام / جمال الغيطاني
خُلسات الكرى / جمال الغيطاني
العاشق والمعشوق / خيري عبد الجواد
داخل نقطة هوائية / وائل رجب
هاجس موت / عادل عصمت
تفريغ الكائن / خليل النعيمي
اسم آخر للظل / حسني حسن
تصريح بالغياب / منتصر القفاش
أطياف العرش / نبيل سليمان
ورد الأحلام / عبد الحكيم حيدر
مكان اسمه الكميت / نجم والي
الخباء / ميرال الطحاوي
أطلال النهار / يوسف القعيد

النشر

أيقونة فلتس / جورج البهجوري

قصص

السرائر / منتصر القفاش

الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم

أمواج الليالي / إدوار الخراط

القمر في اكتمال / نبيل نعوم

ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي

رجفة الأباهم البيض / يوسف الحميد

شرفات قريبة / هناء عطية

صياد في خُص / عبد الحكيم حيدر

عرائس من ورق / أحمد زغلول الشيطي

الرجل الذي عرف تهمته / لطيفة الزيات

خرزة المشي / محمد البحياني

مريم عسل الجنوب / عثمان حامد سليمان

خيوط على دوائر / أحمد فاروق ◆ هيثم الورداني
وائل رجب ◆ أحمد غريب ◆ نادين شمس ◆ علاء البربري

نحت متكرر / مي التلمساني

خشب ونحاس / سمية رمضان

ليلة ماري الأخيرة / نجم والي

طلب لجوء / عبد الإله عبد القادر

تهواء / نورة الغامدي

ريش الحمام / محمود تراوري

شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر

مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود

فقه اللذة / حلمي سالم

لا نيل إلا النيل / حسن طلب

عيون الأدب الأجنبي

البطء / ميلان كونديرا

البحر والسم / شوساكو إندو

عبدة الصفر / ألان نادو

مدام بوفاري / جوستاف فلوبير

المكان / أني إرنو

الكلمات / جان پول سارتر

الأحمر والأسود / ستندال

الآثار الشعرية الكاملة / إديث سودرجران

چاز / توني موريسون

مختارات من الشعر الأمريكي المعاصر / ترجمة د. حسن حلمي

ويليام بتلر ييتس: قصائد مختارة / ترجمة: د. حسن حلمي

اشتياقات للذكرى / ديديه ديناكس

البحث عن الزمن المفقود: الجزء الأول / مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثاني / مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثالث / مارسيل بروست★

الربيع وفصول أخرى / ج. م. ج. لوكليزيو

ديرپارم / ستندال★

أسير عاشق / چان چينيه★

الضفة الأخرى / جوليان جراك*

ذكريات الطفولة / مارسيل بانيول*

دراسات ثقافية عربية

مسرح الشعب / د. علي الراعي

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر

البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث / د. سيد البحراوي

الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط

يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش

أفق الخطاب النقدي / د. صبري حافظ

الاقباط في وطن متغير / د. غالي شكري

العين والإبرة / عبد الفتاح كيليطو

نقد بلا سلطة / د. غالي شكري*

جماليات التشظي / السيد فاروق

قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر / صلاح صالح

دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب العجائبي / تزفيتن تودوروف

الوضع ما بعد الحداثي / جان - فرانسوا ليوتار

مجتمع الفرجة / جي ديبور

تاريخ القرصنة البحرية / باتسيك ماخوفسكي

الاغتراب / ريتشارد شاخت *

حدود حرية التعبير / مارينا ستاج

أزمة منتصف العمر / إيدا لوشان

القصة ◆ الرواية ◆ المؤلف: دراسات في نظرية الأنواع

الأدبية المعاصرة / ترجمة: خيري دومة*

كبش الفداء / رينيه جيرار*

مدخل إلى الشعر الشفاهي/ بول زمتور*

نشوء الرواية / إيان وات*

الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر الشام / ز. ا. ليفين*

الموت في الفكر الغربي / جاك شورون*

كتاب شرقيات للجميع

أيام من حياتي / هرمان هسه

قصص التحول في الأدب العالمي الحديث:

الأنف/جوجول ◆ المسخ/كافكا ◆ الثدي/روث

أثر العابر / أمجد ناصر

من مجمرة البدايات / محمد عفيفي مطر

حمار البحر / خالد عبد المنعم

خطوط الضعف / علاء خالد

ممر معتم يصلح لتعلم الرقص / إيمان مرسال

ثمة موسيقى تنزل السلالم / علي منصور

صمت قطنة مبتلة / فاطمة قنديل

شهرزاد في الفكر العربي الحديث / د. مصطفى عبد الغني

إغواء الغرب / اندريه مالرو

لا أحد يأتي هذا المساء / محمد موسى

حوريات البحر: مختارات قصصية / ترجمة: إدوار الخراط

حواس خاسرة / منعم الفقير

طيور جديدة لم يفسدها الهواء / طارق إمام

سراب التريكو / حلمي سالم

صورة شخصية في السبعين / جان بول سارتر

«... وليلة» / صفاء فتحي

أيورق الندم / سعد الحميدين

في البحث عن لؤلؤة المستحيل / د. سيد البحراوي

الدليل اللغوي العام / سليمان فياض

الأفعال الشاذة / سليمان فياض

قصة الأدب الفرنسي / د أمينة رشيد

معجم تفسير الأحلام في ضوء علم النفس الحديث/ توم شيتراند

لماذا ؟ قصيدة حب / إدوار الخراط

الكتابة / مرجريت دوراس

غواية موتي/ سلوى نعيمي

فضاء المرائي/ عبد الله السمطي

إن تغنت القصائد أو انطفأت فهي بي/ فوزية شويش السالم

أناهيد/ محمد يوسف

فنون

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي

(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)

لغة السينما / علي ابو شادي *

مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩

هل للعشق من تمام !

غفوةُ نومٍ ويغيبّ العاشقُ في لعبة حُلمٍ أثيرية، تتدفق الصور من كل صوب، ويترك الغيطاني روحه تحلّق حرة طليقة مع المحبوبة، صنو الروح الأبدية، البعيدة الدانية، المرئية اللامرئية، تومض، فيمدُ قلمه فتفلت منه هاربة دائماً، مراوغة أبدا.

لِمَ يقوى العزم عند نفادِ الطاقة وقرب التمام، لِمَ الالتماع قرب الانطفاء، لِم لا يتوقف الزمن ويتأخر الاستيقاظ فهل للحلم أن يكتمل وهل للعشق أن يتم!

دار شرقيات للنشر و التوزيع